اللص التاريخي
وتاريخ اللصوص

صورة الكوردي في كتابات
الرحالة والآثاريين في الجزيرة

الكتاب: **اللص التاريخي وتاريخ اللصوص**

الكاتب: إبراهيم محمود

الطبعة الأولى: 2018

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: دار الزمان
للطباعة والنشر والتوزيع
فايبر وواتس آب:
00964 772 4223169
موبايل: 00964 750 3598630
E-mail: zeman005@hotmial.com
Website: www.darzaman.net

په رتووکخانه یا نوودەم
Mob: 00964 750 3598630
00964 770 4572613
Viber – whatsapp:
00964 772 4223169
E. mail: zeman005@yahoo.com
Facebook: Pertûkxana nûdem

الإخراج الداخلي: **دار الزمان**
تصميم الغلاف: **م. جمال الأبطح**

Copy Right © Dar Zaman Publishing
لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه
إلا بإذن خاص ومسبق من الناشر
All right reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted.
without permission in writing from the publisher

إبراهيم محمود

اللص التاريخي وتاريخ اللصوص

صورة الكوردي في كتابات
الرحالة والآثاريين في الجزيرة

الفهرس

من هنا 7

عندما يكون اللصُّ بطلَ التاريخ ومذنبَه 9

الفصل الأول: أين همو اللصوص 47

الفصل الثاني: شرفُ اللصوص، لصوص الشرف 77

الفصل الثالث: اللصوصيةُ خياراً، اللصوصية اضطراراً 103

سيرة ذاتية للمؤلف 143

من هنا

«إذا كان الكذب ضرورياً فلمَ لا أكذب ؟ كلنا يسعى إلى هدف واحد، سواء أكنّا نكذب أم نقول الحقيقة، ألا وهو مصلحتنا الشخصية. فالرجال يلجؤون إلى الكذب حينما يظنّون أنهم يستفيدون من الخديعة، ويقولون الصدق للسبب نفسه، للحصول على شيء يرغبون به وليكونوا موضع ثقة أكثر من غيرهم لصدقهم، فالصدق والكذب إذن ليسا سوى طريقين مختلفين يؤدّيان إلى هدف واحد. وحينما نُعدِم الفائدة، يلجأ الصادق إلى الكذب شأنه شأن الكاذب ذاته سواء بسواء، والكاذب يقول الحقيقة كالصادق».

هيرودوت: تاريخ هيرودوت، من كلمات داريوس لأوتانيس، حول خطة الهجوم على قصر سميرديس المجوسي، ص252.

« إذا كان شيءٌ ما موافقاً لطبيعتنا، فإنه لا يمكنه أن يكون سيئاً، وبالتالي فهو بالضرورة إما حسن وإما سواء. فلنفرض الحالة الأخيرة، أي الحالة التي لا يكون فيها الشيء لا حسناً ولا سيئاً ، إذّاك لن ينتج عن طبيعة هذا الشيء ما يصلح لحفظ طبيعتنا، أعني لحفظ طبيعة الشيء ذاته، ولكن ذلك محال، فإذا كان الشيء موافقاً لطبيعتنا، فهو إذن خير بالضرورة».

سبينوزا: علم الأخلاق، ص 289 .

عندما يكون اللص بطل التاريخ ومذنبه

«لكن، آه يا إلهي! ماذا يمكن أن يكون؟ وأنَّى لنا أن نعرف كيف ذلك يُدعى ؟ وأي بشر هو هذا، وأي فسق بل أي فجور؟ أن نرى عدداً لا يحصى من الناس، لا يطيعون فقط، بل يخنعون، ولا يساسون، بل يُمتهَنون. أموالهم ليست لهم، أهلهم ليسوا لهم، وأولادهم ليسوا لهم، حتى حياتهم ليست لهم» .

اتيان دو لا بويسي: مقالة في العبودية الطوعية، ص148.

«إن خوفي هما : التشويه وغياب الدقة، أو بالحريّ ذلك النمط من غياب الدقة الذي تنتجه تعميمية مبالَغٌ في مذهبيتها الجامدة ومحرق موضعي مبالغ في وضعيته».

ادوارد سعيد: الاستشراق، ص 43

اللصوصية تنوعٌ واختلاف، بقدر ما تكون منقسمة على نفسها، بقدر ما تكون محط نزاع ومشادات كلامية بالمقابل، تبعاً للأطراف التي تعنى بها، أو ترتبط بها أو تخضع لتأثير معين منها، وهي متحوَّلة ومتقلبة في آن.

واللصوصية تتراوح بين التسمية الجغرافية فالتاريخية فالثقافية والنفسية..، لهذا كان هذا الثراء فيها كمفهوم، وهذا التعقيد فيها كعبارة شديدة التركيب.

سوى أنه لا يدور الحديث عن اللص حصراً، إنما عن الكوردي وقد أحيلَ لصَّ تاريخ، وتحت الطلب أيضاً، كونه أبعد من حدود الآخر والغريب!

كما أن موضوعنا يخرج عن كونه توثيقاً لـ« اللصوصية » التي يعاقبَ عليها بالقانون، القانون الرسمي من جهة نظام معين، واعتبار الجاري خاصية لصوصية تبعاً لتاريخ أبعد من كونه لسان حال وثيقة، أي ما يخضعه لمنطق لاتاريخي وقد سُجّل تاريخياً، كإحدى العلامات الكبرى التي تدخله في خانة تمثيله خارج انتظار رأيه، أو إرادته، علامة القوة، ولو أنه يُرى في أرض تعنيه، وأهل يُسمّونه، ويتحدث لغتهم.

إنه من النوع الذي يتم اختلاقه وفق مواصفات يشدّد عليها من يكون في مقام المطارِد، وهو الطريد، وربما برز لقب « لص»، من بين أكثر الألقاب ذيوع صيت ولفتاً للأنظار بالمقابل.

ولعل تجريد كائن ما من صفته التي يعرَف بها إنسانياً، ومن ثم تحميله وزراً بصورة قسرية أو دون السؤال عن رد فعله، وإثر ذلك تطويقه ومساءلته، ومحاكمته دون انتظار رده، واعتباره لصاً، فريد نوعه هنا .

ذلك ما ينبغي التركيز عليه، ومتابعة جملة النقاط التي تقرّبنا منه، وكيف يتم تشكيله: ما هي القوى التي لعبت، كما تلعب حتى اليوم، ذلك الدور الأكبر في تجديد صورته «اللصّية» هذه؟ كيف يجري تحديد الأدوات والمرجعيات اللازمة لهذا الغرض ؟ انطلاقاً من أي فكرة يسعى المعنيون به إلى إبقائه تحت الضوء كما يريدونه؟ هل يمكن الكشف عن الأرضية التاريخية له؟

النظر إليه وفيه، قد لا يكون بعيداً، بالعكس، إن المشكل يبدأ من هنا، وهو أنه قريب إلى درجة صعوبة تقدير المسافة الفاصلة بين الناظر والمنظور، وهو ما يمكن التعرَّف إليه.

ذلك ما نستطيعه من خلال وفرة مواد تاريخية ترفدنا بمعلومات تضيء المكان الذي ننتمي إليه، ومن النطاق الجغرافي الذي نعيش فيه

بعمق، دون نسيان المختلَف عليه مكانياً، والجغرافيا وكيف أنها تخرج من خاصتها التضاريسية، كما هو الواقع الذي يتلبس بعلامات فارقة لا تعود إلا ما هو مرجوٌ من هذا وذاك، وما هو مقرَّر من خلال قوة معرفية في سياق تاريخ ليس واحداً، إنما أيضاً مقابل سلطة لها موقعها السياسي هنا .

وإذا كان الموضوع يتمحور حول فكرة «اللص التاريخي»، بقدر ما يضاء من الداخل انطلاقاً منه، فإن ثمة جانباً من الحقيقة، وهو أساسيٌ، يتطلب تعزيزه، وهو أن بلورة كتاب بالطريقة هذه، قد تسيء إلى التاريخ بالذات، فالتاريخ نفسه يقدّم أمثلة تدحض مركَزة الفكرة هذه، سوى أن العنوان يحتفظ بحيوية محتواه، وهو أنه يمتلك أهلية أكبر لأن يكون عنوان كتاب، أن يكون مدخل عريضاً لإنارة فكرته، طالما أن هناك رقعة جغرافية تضعه في موقع الغريب، وبالتالي، فإن الغريب يساق من هذا الممر الضيق والمدخَم بالشبهات، فجناية «اللص» مؤثّرة إثرئذ .

إنها الجغرافيا المتقلّبة في ثنايا النصوص، ذات الصلة بتداول القوة، ومن يسمّيها، ومن يحرص عليها، ويفعّلها في الواقع !

ولا بد أن المعنيين بالجغرافيا المتصرَّف بها والجيوستراتيجيا، على بيّنة تامة من فعالية المفهوم الجغرافي للقوة وكيفية اعتمادها، أو تصريفها في نطاق التعامل مع الآخر، ومن منطلق الذات المتمايزة، لا بد أن المنشغلين بالشأن التاريخي والمعرفي تحديداً، يدركون تمام الإدراك، كما أرى، ما يعنيه التلويح بمنطق الجغرافيا في مواجهة طرف ما، لأن التهديد الجغرافي الطابع، لا يحوّل هذا/ ذاك الآخر، إلى مجرد مقابل ومعاد ، إنما يجد نفسه وقد صودرت منه الجغرافيا بالذات، وغيّر في أسمائها، وفي الحالة هذه، يستشعر خروجاً من الحاضن الأكثر تغذية

له بالمدد الروحي، ومحاولة لملمة قواه بغية استعادة التوازن، ومن ثم تكون الحرب ذات طابع جغرافي إلى جانب التاريخي بالتأكيد .

ذلك لا يقلّل من وعي المهدَّد بهذا السلب للقوة الأرضية، أو المغيّر في جهاتها، أو تجزئتها، عند اعتبار المجابه بعيداً عن الحق، لأن القوة حين تتفعل، لا يعود للحق اللسان الفصيح وكما يجب.

ومن هذا التصور، يمكن النظر إلى الكوردي من خلال ردود أفعاله على أنه الجاري تقييمه حتى خارج هامش التاريخ، لأن الأخير يمثّل رقعة جغرافية، أي ما يتاخم المتن، ونقطة استناد لمعايشة جغرافيته تلك.

بالطريقة المقدَّمة هذه يتحول المبعَد أو المستبعَد قسرياً إلى الحد الأقصى مما يلي التهميش، ليكون لدينا تهميشُ التهميش، صحبةَ شعور بمأساة تضغط على ذاكرته، وما يمكنه فعله إزاء ماض له، وعلى عقله، وكيف يمكنه تدبُّر أمره تجاه هذا المعيق لانتمائه إلى جغرافيا فعلية تعنيه، بقدر ما يعنيها، وما في ذلك من تلبُّس بمأساة كونه النازف والمقيت والمرفوض ككيان حقيقي، ومن هنا تتأكد خطورة الآخرية، وما في لائحة تجاذبات كهذه من مناورات والتفافات،تحسَب على«الأضعف وبمزيد من السخرية ، إذ إن (الآخرية دوماً عيب. إنها صورة كبش الفداء. صورة المنبوذ، صورة السرّي، صورة المهاجر. يكون هذا حكاية خرافية. يكون هواماً جماعياً، نجده في أحلامنا، نجده في كوابيسنا، وفي مؤلفاتنا)[1].

أن يعيش الآخر قلق هويته غير الممنوحة له إلا بوصفها ضابطة تقويمية له وليس تمييزاً لمصلحة من يوقّع عليها، وكونه ممثّل سلطة، فذلك من علامات الشعور بخزي العالم والسخط عليه داخلياً .

(1) سرجان، فيليب: مسألة الآخرية، مجلة «الآخر»، بيروت، العدد «1»،2011، ص 172

الآخرية حالة فصل وانفصال، وممارسة عداء ناحيته، برفعه إلى مرتبة غير محسودة، من نوع الشبهة، وإبقاء الكلمة حاجزاً بين العالمين.

كما أن الآخرية لها من الثراء المعجمي والدلالي ما يصعب على الإحاطة بمحتواها، سوى أنها، كما هو حال صندوق «باندورا» السيء الصيت في التاريخ الأسطوري، تواجه رجال القانون كما السياسة، كما الفلسفة، كما الأدب..الخ، بتحديات متشابكة ومقلقة في كيفية تباحثها. إنها توصيفاً، وكما نوّه إلى «باندورا» المرأة المحمَّلة بشرور البشرية، تحال إلى مفعول به أنثوياً، والفاعل ذكري الأبعاد، سلطويّه، وهذا يزيد في عنف التقييم، إذ إن الجسد الآخري، إن جاز التعبير، لا يفلت لا من قبضة الذكر المطارد، ومن شبقه ذي الحافز الترهيبي والاستعراضي، ليجري التمكن منها داخلاً وخارجاً، وليكون تأنيث الآخرية من موقعها شراً، تعزيزاً لنفوذ المقيّم لها، أو الساعي إلى تبرئة ساحته من كل إثم، وله دور كبير في إيجاده، أو حتى استحداثه، وما يترتب على هذا الإجراء من ذكورة طافحة، ولصوصية .

ما الذي يزيد في حدة هذه الشعور بـ«**الآخرية**»؟ أي باعتباره المقصي: المبعد، المنفي عن تلك الدائرة الأوسع للمجتمع، أي حين يُخرج، وبدقة أكثر، يُرمى به خارج النهر البشري، العالمي، الكوني، التاريخي، الجغرافي عينه، ويحتفظ به تحت الطلب، وهو يعرَّف باسم ينسّبه إلى القائمة الكبرى من الأسماء التي يحوزها ممثّل القوة، أي ما يمنحه أهلية التكلم بالطريقة التي يريد، وما يشعره بأبوَّة فالقة تمد في نفوذه على العالم من حوله، سواء باسم سلطة فرعية، أو شاملة، أو عبر توكيل، في الحالات كافة، يبقى حامل الاسم، الهوية، العلامة الفارقة، في عهدته، كما لو أن الحد الأقصى من الرعاية ضمن محمية، وهي تكون مرئية، مراقبَة، إنما في الحالة هذه، علينا ألا ننسى أن مقيم المحمية

أبعد ما يكون عن الحماية، لأن ليس من نقرة، من حفرة، من مرتفع أو منخض أرضي، أو جرف، أو حجرة، أو شجرة، أو رقعة جرداء، أو تجمع ما، إلا ويكون كل ذلك مسجلاً ضمن خارطة تعني المحمية، وفحوى الكلام، أن في مقدوره القيّم على المحمية أن يصل في سرعة قياسية إلى أي زاوية، أو إحداثية مسماة، وينفّذ ما يخطط له، أي ما يخص حق الحياة والموت. وربما كان المعتبَر: حق الموت المجاز، هو الأكثر قابلية للتطبيق، بما أن فكرة المحميَّة لا تحمَد أو تثبت في مكانها . يعني ذلك أن أي تغيير في جزء منها، قد يلحق ضرراً« فادحاً »أحياناً بجانب من المحمية، وهو في الوضع هذا مشمول بغواية الملكية غير القابلة للطعن بالتأكيد، لأن الأرض مطوية تحت سلطته، ومالك الأرض مالك سلطة، ومن منطلق اعتباره المالك بصفة معينة، فهو مستدعي الموت، أو مغيّر في شرط الحياة، أو في العلاقات التي تصل كائنات المحمية ببعضها بعضاً، ومن يكون المحروم من فسحة مكانية، على قدر هذا الحرمان تثبت أو لا تثبت صلاته بجسده،بقواه الحية والعالم من حوله، ويفقد حقه في الاعتراض على ما يُتَّخذ ضده، لأن لا قيمة لرد فعل، إن لم يردع قوةً غاشمة، بالعكس، قد يضاعفها .

إنني أتحدث عن الأرض حين تُطوى تحت تسمية أخرى، ويضفى عليها من القيم الكثير الكثير، كما لو أنها كانت في انتظار هذه الانعطافة التاريخية الاستثنائية ليحتفى بها، ويكون الحدث العظيم، أي ولادة الاسم الجديد، والبدء الجديد، باعتباره الفعلي، دونما أي اعتبار لما كان سابقاً .

هنا نجد أنفسنا في مواجهة هلامية ما كان ، وله طابعه العدمي أو شبهه، ثم بروزه الجدير بالتسمية، وهي الطريقة المثلى لقراءة الذهنية التي تسيطر على المكان والزمان، وتطلق أسماءها الخاصة عليها عبرهما، وخصوصاً مع مفهوم «الفتح الإسلامي»، وما يعنيه المفهوم من

مخاتلة حقيقة، واستبداد بالمعنى، أي حين يعرّف المعنيون به على أنهم «رسل حضارة» لبشر لم يكن لهم من حضور، أو قابلية حياة إلا عن طريقتهم، ليدخلوا في عهدتهم/ذمتهم، ليكونوا «مَوال» لهم، مع حفْظ القيمة السلبية من منظور الآخرية، لحظة تشريح المشهد القائم والمرئي بسريان فعله التجييري.

ومن باب إضاءة البحث هذا، من المفيد التوقف عند جملة نقاط رئيسة تناولها المفكر البلغاري، الفرنسي الجنسية، وهي تخص تعامل الجغرافي الأوربي، الاسباني و«الفاتح» الاستعماري التليد: كولومبس، لما بات يُسمى بـ«العالم الجديد»، ومن ثم باسم أوربي«أميركا» لاحقاً، وذلك جهة التعامل مع الأرض وجهاتها، والسكان الأصلانيين وكيفية توصيفهم:

إن ما كان يشدّد عليه، هو كيفية تطويع هذه الجغرافيا الساحرة له ومن معه، ومن جاء من بعده في خدمة منظومته الفكرية الاستعمارية الطابع، وقبل أكثر من خمسة قرون، لأن التطويع يستدعي القوة، والتأسيس الإيديولوجي، ومن ثم طي ما كان في ذمة ما هو مستجد (وهكذا فإن كولومبوس يعرف حق المعرفة أن هذه الجزر لها أسماء بالفعل، أسماء طبيعية بمعنى ما، لكن كلمات الآخرين لا تهمه كثيراً، وهو يسعى إلى منحها الأسماء «الصحيحة»، وعلاوة على ذلك، فإن إطلاق الأسماء على الأشياء يساوي امتلاكها. ص 33)، وفي مكان آخر (إن الأشياء يجب أن تسمى بالأسماء التي تنطبق عليها. ص34)، و(وهكذا فإن كولومبوس لا يعترف بتنوع اللغات. ص 36)، وهذا يتأكد في علاقته بالهنود(فالهنود ينطقون كلمة «كاريبا» التي تشير إلى سكان جزر الكاريبي «الآكلين للحوم البشر». أما كولومبوس فيسمع «كانيبا» أي شعب الخان. لكنه يفهم كذلك أنه، وفقاً للهنود، فإن هؤلاء السكان لهم رؤوس كلاب «من كلمة Cane الاسبانية «كلب».» يأكلون بها الناس . ص

37)، وهذا يعني من حيث المتابعة والتحليل (أن كولومبوس لا ينجح في اتصالاته الإنسانية، لأنه ليس مهتماً بها .... ويعني ذلك لاحقاً أنه : في هرمنيوطيقا كولومبوس ليس لهؤلاء مكان خاص بهم.ص 39) [1].

تودوروف رحالة إثر رحالة، ومتنقل بين ضروب من الكتابات ذات الأدوار الأدبية والنقدية المقارنة، والممارسة الثقافية، ونقد الآخر بصورة ملحوظة فيما بعد، فهو بقدر ما يتعقب خطى الذين توجهوا كمغامرين وشذاذ آفاق على المستوى الأخلاقي، وتحت يافطة الجغرافي والرحالة، ويسجل ملاحظاته، بقدر ما يمضي بنا إلى تحرّي البنية الفكرية لمن حاولوا إبراز «فعلهم» على أنه اكتشاف قارّي لقارة أخرى.

كيف يمكن لقارة تضمنت حضارة باذخة في بنيانها الثقافي والاجتماعي واللغوي، «قارة كاملة» أن تُطوى، أن تذرَّر في التاريخ وبالقهر، في خانة قارة أخرى، كما لو أنها لم تكن موجودة ذات يوم: اسماً وحضور دلالات ؟

وهنا، لا أتحدث عن الإبادة الجماعية التي تمت وبشكل ممنهج فحسب، إنما عن مسعى قاري استعماري مبكّر، لإظهار لصوصية غير مسبوقة، استثنائية في النيل من عالم جغرافي سحري واحتوائه أيضاً.

أترانا مبالغين إن قلنا، إن ما طُبّق من أساليب احتواء وسيطرة وممارسة عنف وحتى قتل في اللحظة التي يرتئيها القائم بالإغارة

(1) تودوروف، تزفيتان: فتح أمريكا «مسألة الآخر»، ترجمة: بشير السباعي، دار سينا، القاهرة، ط1، 1992، وقد وردت أرقام الصفحات في المتن للإيجاز ، ومن المعلوم، كما هو مستقرَاً في محتوى الكتاب، أن مفردة «فتح» على الضد مما هي عليه في الواقع، أي تهكمية، إذ كيف يمكن اعتبار ما جرى للهنود الحمر من قتل وتعذيب وذبح واعتباره من قبيل الفتح ؟

والهجوم، على الصعيد الإسلامي، كان ينتمي إلى هذا الجانب من التعامل في المسلك مع الآخرين؟ حيث إن عبارة «الإسلام يجبُّ ما قبله»، لا تعدو أن تكون استئصالاً من الذاكرة الجمعية، كل ما له علاقة بما كان قبله، ولا أدل على ذلك من عملية تغيير الأسماء وإحلال سواها بالقوة بإطلاقها على الأمكنة والكائنات والأشخاص، باعتبارها تعميداً خاصاً بالدين الجديد، وبما أن اللغة المعتمَدة «سماوية المصدر»، فلا مجال للمقارنة بينها وبين أي لغة أخرى. أي ما كان يدخل في خانة «الاستعجام»، أو نظير «البربرة»، أي : الكلام غير المفهوم، أي ما سيق إلى مضمار اللامفهوم، تجاوباً مع براغماتيكية الدين الجديد وأولي أمره، ولغته التي لا لغة سواها .

ولا بأس من التعرض لبعض الأمثلة في هذه الحالة، وربما كان الباحث الجغرافي والتاريخي الكبير بكتاباته شاكر خصباك، والذي انشغل بالتاريخ الكوردي وجغرافيته كثيراً وكان معتدلاً فيما قام به، سوى أنه لم يتحرر من ربقة الذهنية «الفتحية» وتداعياتها، والنظرة إلى الكوردي ليس على أنه يعيش مع الآخرين، وإنما في أن ينظَر إليه بذاته من زوايا مختلفة في ذات الجدار الوطيء قيمياً : أرضاً وتاريخاً ولغة خاصة به.

يتحدث خصباك في مؤلَّف له عن أهداف الجغرافيين البلدانيين «العرب والمسلمين طبعاً، حماس لا يخفى بها جهة التعظيم لـ«فتوحاتهم» المعرفية (أما أهداف الجغرافيين البلدانيين، والذين كانت مؤلفاتهم موجهة أساساً لخدمة الإداريين والحكام والتجار بالدرجة الأولى، وكانت جغرافيتهم «نفعية» أساساً، فقد كانت تغطي النقاط التالية:

1- وصف المدن وصفاً دقيقاً مفصلاً قدر الإمكان مع نبذة عن تاريخها، ومن بناها، ومن سكانها وأهم الآثار فيها .

2- دراسة طرق المواصلات من حيث اتجاهاتها وطوبوغرافيتها والمدن التي تقع عليها والأبعاد بين تلك المدن ومدى درجة الأمن فيها.

3- الاهتمام بدرجة أقل بوصف الظواهر الطوبوغرافية والتركيز عليها بصورة أخص على مجاري المياه «الأنهار والنهيرات» والبحار والبحيرات.

4- الاهتمام بدرجة أقل بذكر الصناعات والزراعات والمعادن والأحوال الاقتصادية.

5- سرد المعلومات التأريخية المتعلقة بالبلدان والمدن وحكامها. وتشمل المعلومات التأريخية عادة الحديث عن سكانها وأديانهم ومذاهبهم وعاداتهم وتقاليدهم.[1].

خصباك يتاخم الحقيقة وسلطتها الداعمة لها دون أن يسمّيها كما تستحق، لأن مجرد التسمية، ينزع عن البحث فضيلته المتوخاة خارج إدارته الذاتية، أي تذكيره بالجانب الإداري والسياسي، أو «النفعي» من رحلة هذا الجغرافي أو ذاك، حيث إن أعمال الإدارة وهي بهيئتها السياسية، وبالدلالة الإسلامية السلطوية، أو الحاكمية، تعني «تطويباً للعالم» بالكامل، أي ما أصبح في حكم السيطرة الامبراطورية العربية الإسلامية، وما بقي دونها، وكان السعي إلى احتواء العالم عموماً، عملاً بالموجَّه الديني، حيث الإسلام هو الدين الوحيد الذي يجب أن ترفَع رايته، والذين انخرطوا في اللعبة الدينية انساقوا فيها ووراءها، والافتتان بمغذياتها المعتقدية.

---

(1) خصباك، شاكر: الجغرافيا عند العرب، المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 1986، ص 49.

وأحسب أنه لو رفع النقاب الفعلي عن هذه الناحية، لعرّي الدين بمحتواه العملي أو الواقعي كلياً، إذ كيف يمكن المصادقة على أن العالمين بيت إسلامي من حيث المبدأ، وأن الجاري إدخاله في خانة «الإسلام» أصبح «دار السلام» والخارج «دار الحرب»، بعيداً عن النفعية الملازمة؟

كيف يمكن الذهاب مع المؤلف إلى تعداد «مناقب» الجغرافيين أولئك، دون تحديد الإنشاء «السلطوي» الخاص الذي كان يجلو كل نشاط يقومون به، أو ما كانوا يقومون به بوازع ديني وتحت الطلب؟

وبصورة أكثر تمثيلاً للإسلام العقيدي دون تحرّي المضمون يقول باحث آخر(وفي ظل الإسلام ازدهرت سائر أنواع المعرفة بصفة عامة والجغرافيا بصفة خاصة. وأدت حركة الفتوح الإسلامية إلى ظهور كتب عديدة تعالج موضوع المسالك والممالك مثل كتب خرداذبة والاصطخري وابن حوقل وغيرهم .) [1].

رب سؤال يطرَح هنا: هل حاول باحث في التاريخ العربي الإسلامي، أو الجغرافيا ذات الصلة طرح سؤال من قبيل: كيف كانت تسيَّر أبحاث أو كتابات، أو تحرَّر أعمال بحثية و«اكتشافية»، في ظل سلطة تحتكر البلاد والعباد لأن ممثلها هو ولي الله على الأرض، ويحدد الحسن والقبح؟

هل طرِحت أسئلة في السر، وتُخوَّف منها على مستوى سياسة مراقبة ومعاقبة ؟ أم أن هؤلاء الذين اندفعوا إلى الخارج، حتى إزاء

---

(1) محمدين، د. محمد محمود: الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، دار الخريجي، الرياض، ط2، 1996، ص 138 .
ينظَر أيضاً، جمال الفندي: الجغرافيا عند المسلمين،دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1982، مثلاً، ص 26، والكتاب يندرج في سلسلة «دائرة المعارف الإسلامية».

الأمور الأكثر هامشية «في عالم الفكاهات والطرائف»، كانوا يتلمظون وهم يتفاعلون مع لإنشاءات سلطوية، ويستمدون منها العون أو الدعم ؟

أليس الوارد في بطون المدونات الكبرى، وفي الاتجاهات كافة، كان يعمل تحت يافطة «صالح للتداول» ؟

أتحدث هنا عن السياق العام، أو المناخ السائد، وليس ما كان يتداول بصمت، أو يعتَّم عليه، أو حين كانت تطرَح أعمال غفل من أسماء مؤلفيها، أو ما كان يُتداول بعيداً عن الأعين والآذان، حيث يسهل الحديث عن مئات لا بل آلاف الكتب التي لم تبصر النور لهذا السبب .

هنا أجدني مذكَّراً بمن يصعب نسيانه أو عدم الإحالة إليه لأن ما تم التطرُّق إليه من موضوعات ومن جهته، وما أثاره من أفكار، وأودع متون نصوصه من تصورات ورؤى زمكانية وانتروبولوجية، فيه الكثير من أبدية القوة الرمزية، وجلاء السلطة المعرفية، وأعني به الفكر الفلسطيني الأصل، والأميركي الجنسية ادوارد سعيد، وفي الواجهة يحضر كتابه ذو الصيت العالمي بعنوانه، أي «الاستشراق»، وما يستند إليه من ركائز ثلاث «المعرفة، السلطة، الإنشاء»، وما في هذا الترتيب من حراك قيمي وإقلاق من حيث البنية والانتظام وخاصية القوة وميزتها .

وجاهة الإحالة إليه، تبرز في التنويه إلى ما سبق إيراده من أفكار ومن مقبوسات كذلك، خصوصاً ناحية تودوروف المهاجر مثله، إنما إلى فرنسا، ومتعدد المواهب مثله، مع فارق نوعية الرؤية وأسلوب عرض الفكرة ونوعيتها، أي لحظة الربط بين «**فتح أميركا**» وكتابه هذا تحديداً أكثر من سواه «الاستشراق». تُرى، أي ضرر يلحَق بالمحتوى انطلاقاً من عنوانه، إن قرىء بالصيغة التالية والمقابلة تماماً «فتح الشرق»؟ رغم أن «الاستشراق أسبق في الظهور، سوى أن ما تعرَّض له

تودوروف من منظور سيميائي، علاماتي برؤية تنقيبية وتشخيصية فذة، يضفي على كتابه جسارة في الطرح، وصدمة روحية لمن ينتمي هو نفسه إليهم «آل بيته من الأوربيين»، عدا عن الذي يستمد منه مرجعياته المسماة، في نسبة كبيرة هو من «جعبته» الإبداعية الذاتية، وأن لسعة النقد العميقة والموجعة إلى الأوربي وهو يرجع به إلى البدايات الأولى لعصر النهضة، فيها الكثير من المغامرة المحسودة، أي قلب مفهوم الرحلة واعتبار البدايات الفاعلة في تاريخ احتكاك أوربا بالعالم، وبمدى واسع، كان فضحاً أخلاقياً جرى التستر عليه والتعتيم على «جرائمه».

ادوارد سعيد، لا يخفي اقتباس أدواته المنهجية والكشفية من ميشيل فوكو الفرنسي، حيث يعزّز من دور الأفراد على صعيد الممارسة الفكرية والثقافية وتأثيرهم في المجتمع سلطوياً [1].

(1) ينظَر حول ذلك، ومن باب المقارنة، ما جاء بلسان ميشيل فوكو، في كتابه: إرادة العرفان، ترجمة: محمد هشام، منشورات أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2004(إنها تمارس انطلاقاً من نقاط عديدة لا تحصى، وفي لعبة علاقات لامتساوية، متحركة.. علاقات القوة المتعددة التي تتكون وتلعب في أجهزة الانتاج، والأسرة، والجماعات الضيقة، والمؤسسات. ص 76)، أو من خلال كتاب جيل دولوز عنه: المعرفة والسلطة «مدخل لقراءة فوكو»، ترجمة: سال يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1987، وبوضوح أكثر جهة الشرح كذلك، ص 77– 80 ، والعنوان الأصلي للكتاب هو «فوكو»، وما يقوله ادوارد سعيد في كتابه: الاستشراق «المعرفة، السلطة، الإنشاء، نقله إلى العربية: كمال أبو ديب، المؤسسة العربية، بيروت، ط2، 1984، إذ يقول (ليس ثمة ما هو سرّي أو طبيعي حول السلطة، فهي تتشكل، وتفيض، وتنتشر، وهي أداتية، وهي مقنعة، وهي ذات مكانة، وهي تؤسس شرائع للذوق والقيم، وهي عملياً لا تفرّق عن أفكار معينة تمنحها هي الكرامة والجلال بوصفها حقيقة، وعن التقاليد، والمنظورات،

إنه في المثار إليه في متن الهامش، إن جاز التعبير، يشق «عصا» الطاعة عن منهجية فوكو، سوى إن تدقيقاً في مساره البحثي، يقرّبه من السلطة الأكثر شمولية، أي تلك التي تؤرشَف في ذاكرته الشخصية، وهو يحاول التصدي للآخر: فوكو، وعالمه، تأكيداً على تمايز مشروع، لكن «البلدوزر» التحرياتي له، وهو يستغرق عالماً كاملاً ومذهلاً في استقصاءاته، عن يحرّره من سلطة «الموروث» الشرقي، وتلك الغواية اللاشعورية التي توجّه أفكاره، أي حيث يعترف بدَينه «العظيم» لفوكو، سليل «الغرب»، ويظهِر استقلاليته، في كتابته، في عامل هجنة أرادها مختومة باسمه، وقد تجاهل أثقال «الشرق» المرعبة، على مستوى: المعرفة، السلطة، الإنشاء!

مفكّر الاستشراق أراد أن يحاصر المستشرق، أي مستشرق، بقدر ما رام محاكمته، والدفع به إلى الاعتراف بجرمه، أي كونه ينتمي إلى «مؤسسة الغرب» الامبريالية بالتسمية، عملاً بتصوره المبرمج في ذهنه عبر ثالوث يتطلب مكاشفة دلالية في الترتيب والإنارة، إذ العنوان يقرّبنا من الغرب، سوى أن طريقة المعالجة تتسبّه إلى «الشرق» المستند إلى أرشيف مخجِل من الإتهامات المسبقة، تعبيراً عن «طهرانية» سلطة، لا تتوانى عن التضحية عند اللزوم بكل من تمثّلها، ولو كان هو عينه.

في موقف المنتمي إلى «دارالسلام»، حيث يكون الإسلام، يسهل

والمحاكمات التي تشكّلها، وتنقلها، وتعيد إنتاجها. وفوق كل شيء، فإنه يمكن، بل يجب في الواقع، تحليل السلطة.. ص53)، ليقول تالياً معرّفاً بمنهجه المستقل (بيد أنني، بخلاف ميشيل فوكو، الذي أدين لعمله ديناً عظيماً، أؤمن بالأثر الحاسم الذي يتركه الكتّاب الأفراد على الجسد المجتمعي، الذي يظل فيما عدا ذلك مجهول الهوية، للنصوص التي تكوّن تشكيلاً إنشائياً كالاستشراق. ص 56).

التأكيد على مدى تمثُّل الكاتب الإسلامي لمنظومة القيم العائدة إلى سلطته، وبما يتوافق مع «جيش الإسلام: العرب».

إن مجرد تغيير مفردة «الإستشراق» وإحلال «الاستعراب الإسلامي»، يكون في مقدور الباحث الوقوف على جملة التناظرات أو التقابلات، أو البنى الشعورية واللاشعورية للحالة: الظاهرة، حيث يتوافر لدينا كم وافر من المعنيين بهذا الارتهان الثقافي المؤسساتي : الديني، كما في هذه القائمة من المقبوسات، مع التذكير مجدداً بوجود اتباع ما أشرت إليه: الاستعراب الإسلامي بدلاً من الاستشراق، ويكون الشرق كل ما هو خارج مضمار: دار السلام بالمفهوم الإسلامي القائم (فالاستشراق أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي «انطولوجي» ومعرفي «ابستمولوجي»، وبين الشرق و«في معظم الأحيان»: الغرب.. ص38)، ثم (الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق، واستبنائه، وامتلاك السيادة عليه .ص 39)، وما يُمير هذا الجانب على النقيض مما يشدد عليه (وما يعنيني أن أقوم به الآن هو أن أقترح كيف يموّه الإجماع التحرري العام على أن المعرفة «الحقيقية» هي جوهرياً لا سياسية : وبالمقابل، أن المعرفة السياسية صراحة ليست معرفة: حقيقية. الظروف السياسية المنظمة تنظيماً عالياً، وإن لم يكن غامضاً، التي تسود في عملية إنتاج المعرفة. ص 45)...الخ [1].

إن من الشائق والمفيد التقابل بين ما ذهب إليه الاثنان، حيث بدا لي أن تودودوف الغربي، كان أكثر تجسيداً لأصالة الحقيقة، وطلاقتها، وبالتالي، كانت رؤيته للمتغيرات وحيثياتها أعمق وأنفذ دقة، في الوقت الذي برز فيه ادوارد سعيد في وقع محامي الدفاع عن الشرق، وبتعميم

(1) سعيد، ادوارد، المصدر السابق، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

أكثر، كما لو أنه أراد أن يبرز في أنظار عالم الشرق البطل الملحمي في هذه «المبارزة» والمردود الربحي النفعي لجملة الأنظمة «الشرقية»، وسلبية النتيجة، إذ يصبح الجلي الأبعاد والبطولي فكرةً لدى سعيد، هراوة غليظة وقاسية على هامات حشود الشرق، أو حتى من هم على خلاف مع سلطتها، انطلاقاً من الموقع الفكري المهيب له عالمياً. أي رغم كونه «بطل فكر معتبَراً». سوى أن عصباً نابضاً من روح الأبوية الشرقية يضيء هذه الحمية الذاتية!

ولعله، وبغية الإجهاز بالمعنى المفاهيمي العالي الطراز على «طريدته» البحثية: مطاردة الغرب ومن ينتمي إليه كتابياً، أو موقفاً، ها هو يعمّق هذا الإجراء في «الثقافة والامبريالية»، بالعكس، إن هذا الكتاب يستحيل قراءته قبل قراءة الأول، وهو يركّز على خاصية الرواية، أي ما يلحق الأدب بالفكر بصورة لافتة، فالذين ينتمون إلى الغرب، وتحدثوا عن الشرق المحوَّل، هم أنفسهم، ولو في مجالات كتابية أخرى، ممن ينتمون إليه، وهذه المرة يكونون خارجين من ذلك المعطف الامبريالي الهائل والرهيب (للمرة الأولى، هنا، يمكن لتاريخ الامبريالية وثقافتها أن يُدرس الآن دون اعتباره إما وحدانياً أو مجزءاً، متمايزاً، منفصلاً بصورة تقليصية.)،وما ينير طريقته في البحث (إن طريقتي هي أن أركّز بقدر المستطاع على أعمال فردية، أن أقرأها أولاً كنتاج عظيم للخيال الخلّاق أو التأويلي، ثم أن أجلو كونها جزءاً من العلاقة بين الثقافة والامبريالية... وحيث إن المؤلفين، كما أؤمن، كائنون إلى حد بعيد في تاريخ مجتمعاتهم، يشكلون ويتشكلون بذلك التاريخ وبتجربتهم الاجتماعية التاريخية ..) [1].

(1) سعيد، ادوارد: الثقافة والامبريالية، نقله إلى العربية وقدَّم له: كمال أو ديب، دار الآداب، بيروت، ط1، 1997، ص 65-66.

تلك هي براعة اللغة الرشيقة والمغوية لادوارد سعيد، وهي البراعة التي وجدت سوقاً ثقافية رائجة لها في بلدان «الشرق» وتحت رعاية أنظمته «وهي مفارقة»، والعالم الإسلامي، إلى جانب العالم الذي يتلمس في أسلوبه عزاء خاصاً له، ولكنها اللغة التي تذكّرنا بازدواجية البلاغة وهي تنطوي على سهولة تقبلها والتجاوب معها، ومن سرعة الإيقاع بالنفَس والتمكن منها أيضاً.

وراء هذا التوسع في اللعبة ما يخفي الأكمات، المطبات، الزكزاكات السجالية وأغوار تلبسات المحاكمات والحفر التي تصدم، لأن الشرق الذي يتمثله المؤلف لا يخلو من تركيب، من تفريغ له من ظلماته الكثيرة، وكأن تعليمه حبَّ الحقيقة المحرّر في عالم يصنع حقائقه وحقائق العالم الآخر، أي «أميركا» من خلال فسحة حرية كافية، وتبعاً لإرادة القوة العرفية لديه، كأن ذلك أنساه أه يتحدث عن شرق خرج منه ليتنفس الصعداء.

كأنه نسي ما قاله بصدد «قول الحقيقة للسلطة»، وما في هذا التثوير من أحادية الاتجاه (إنني قد أذهب إلى القول بأن على المفكر أن يشتبك في نزاع مدى حياته مع الأوصياء على الرؤية المقدسة أو النص المقدس، فضروب عدوانهم لا يحصيها العد، وهراوتهم الغليظة لا تقبل أي خلاف ولا تسمح قطعاً بأي «تنويع» أو تعددية. وأرى أن حرية الرأي والتعبير التي لا تقبل المهادنة هي الحصن الرئيسي للمفكر العلماني، وأن التخلي عنه أو السماح بأي عبث بأي من الأسس التي بني عليها يعني في الواقع خياة لعمل المفكر ورسالته .) [1].

(1) سعيد، ادوارد: المثقف والسلطة، ترجمة وتقديم: د. محمد عناني، دار رؤية، القاهرة، ط1، 2006، ص 152، ويذكَر أن العنوان الرئيس للكتاب، كما هو

هذا التحديد بمثابة وثيقة مكتوبة بدم المناضل الذي لا يساوم على مبدأه، مهما كانت الإغراءات، أو تنوعت التهديدات، إنما يزداد إصراراً عليه، بقدر ما يظهر المزيد من ضروب المقاومة، والتحدي للجهة/ الجهات التي تحاول ثَنْي عزمه، أو التأثير في عقيدته الخاصة، ولا بد أن وراء هذا التشديد في المبدأ، تماسكاً روحياً، وتعالياً إرادياً على الواقع وتشرذمه، لا بد أن في نباهة طرح كهذا الكثير مما فعلّه في أرض الواقع، وامتلاكاً لتلك الأدوات التي تساعده في النظر إلى ما هو أبعد مما يراه الآخرون، أي ما يبقيه مراهن تاريخ كامل، فكيف يعيش ادوارد سعيد مثل هذا التناغم المستحيل بين صلابة الموقف، وسلوكه الطريق الذي يتأمم من قبل أنظمة يهمها قبل كل شيء، كيفية إفشال أي فكرة لها استقلالية توجه، وتحفيز للآخرين بوجوب مناهضة العنف أو الاستبداد ؟ كيف يجيز مفكرنا لنفسه ولقلمه وروحه الوقوع في مثل هذه السقطة؟ أي وهو ينبري أكثر مقاومة لـ«عدوانيات» الغرب، ويدير ظهره لمظالم الشرق، وهو يعلم تماماً أن لائحة الخروقات التي تمس حقوق الإنسان فيه يصعب حصرها .

ذلك إجراء يتطلب وقتاً طويلاً، ومجالاً أرحب بغية التنقيب في الكثير من العلاقات التي تنير هذه الساحة الثقافية أو الفكرية، أي ما يجعل أحدهم عبداً لآخر وهو نظيره فيما هو إنساني .

على الأقل، يحتاج هذا الدفق الكتابي، والاسترسال في قوة البلاغة والحجة، إلى نوع من التأني والمكاشفة الذاتيين لما يتردد حضوراً في

مدوَّن داخلاً بالانكليزية، وتبعاً لطبعة سابقة وفي دار نشر أخرى «بيروتية» هو: صور المثقف .

النص، والتمييز بين الجلاد والضحية، بين ما يساق إلى دائرة «اللصوصية» بأكثر من معنى، ومن يثقَل باللصوصيات الكبرى واقعاً .

أي ما يجب التمييز فيه بين الحقيقة في مطلقيتها، والمنهج في نسبيته، مهما أبان عن عمق أثر!

وبناء عليه، ربما يغدو من اليسير التحفظ على كل ما هو وارد في سياق بلاغات القول واسترسالته الرؤيوية واستدعاءات الشهود من نصوص تترى، وقائمة الأحكام التي تخص عالماً يجري التنظير له من زاوية محددة، ضيقة، أو تصورات مختزلة، يصبح في الواجهة ما يجدر الرهان عليه، أي ما يقرب القول من الواقعة العلمية، ليكون في إمكان المطروح للنقاش، التعرف عليه في جريان وقائعه وأحداثه، والربط بين مكوناته.

بناء عليه، يصبح التركيز النقدي الطابع على ما هو علمي ضرورة تخدم التاريخ والمجتمع والسياسة ذاتها، أو الحقيقة عينها، أي حيث ينعدم التحفظ أو التعتيم على جانب من الواقع تقديراً خاصاً لخلافه (فالعلم وضع كلياني، ومقصده العام. فالعلم لا يراهن على واقعة/ ملاحظة قائمة بذاتها، بقدر ما يقيم علاقاته مع تنوعات الوقائع/ الظواهر. حيث لا أهمية تذكَر لواقعة/ ظاهرة قائمة بذاتها .)[1].

تجاوباً مع هذا القول، يصار إلى تنوير الحقيقة الاجتماعية- السياسية في مجتمع محكوم من قبل سلطة، والنظر في إيديولوجيا السلطة، وكيف تتحدد موقعاً في المجتمع، أي ما إذا تمثيلها لهذا المجتمع يكون على مستوى مكوناته الاجتماعية، أو عموم فئاته التي تكوّنه أم لا .

(1) بيشكجي، اسماعيل: المنهج العلمي، مترجم من التركية إلى الكوردية، مؤسسة اسماعيل بيشكجي، ستانبول، 2016، ص 62.

ذلك ما يعيدنا إلى العلامة الفارقة لحقيقة المعرفة، وهي أن تكون محرَّرة من كل وصاية إيديولوجية، في ألا يزاحَم عليها من خلال عقائد تتطاحن فيما بينها، وتختزلها على صعيد الممارسة المجتمعية.

وتبعاً لما تقدم، يكون المعرَّف به من خلال بيشكجي العالم الاجتماعي المقدام حقاً، أكثر تفعيلاً لسلطة المعرفة، لأنه فيما يعرَف به، لم يرضخ لأي مفتَتن سلطوي، أو جهة سياسية، وهو يشدد على الغبن التاريخي الملحق بالكورد أكثر من أي شعب آخر، شعب محظور على هويته، اسمه التاريخي، مما راهن عليه المفكر السالف ادوارد سعيد، وهو بصورة ما، يشرعن لعنف أنظمة الشرق عملياً .

ولعل هذا التوجه المذكور والمشدَّد عليه، يسمح لنا بالتعرف على التنوع الكبير في «**اللصوصية**»: ثقافية، سياسية، اجتماعية، لغوية، فنية، تربوية، مادية، معنوية وتاريخية، وأن متّهِم الآخر بذلك يثبت التهمة تلك على نفسه، بقدر ما يجلو فيه حسّ التمادي في ترهيب الآخر وحرمانه من حق التكلم باسمه.

وإن كنت قد ركَّزت على مفارقات تاريخية وهي عبء على التاريخ، فإن المقصد هو الدخول في نطاق محدد باسمه: جغرافي- سياسي، وإن شئت، فجغرافي تاريخي في العمق.

أي ما أردته بالعنوان الدال «صورة الكوردي في كتابات الرحّالة **والآثاريين** في الجزيرة»، تلك الصورة التي تتنوع من حيث التقييم، لكن علامة السلبية وتفريغ المشهد من العمق الإنساني تجاوباً مع إرادة تاريخية فارضة، من فعل الحضور المدمج باسمه ومكانه وزمانه، هي التي بدت لي أكثر أهلية بالتناول، أي حين تكون السلبية حصيلة استلاب الأرض وتطويبها خارجاً.

وإذا كان لي أن أقترب من «الهدف» أكثر، فهو أنني لم أشأ الدخول في سجال تاريخي، لا أثقل منه بما هو إيديولوجي صارخ، أي ما يتعلق بـ«حقانية» التسمية، وتنبيه «عفريت» القمقم، ومن ثم الدخول في منطقة التوترات الكبرى، الأمر الذي يضغط على محتوى الموضوع.

لهذا، فإن الذي آثرت الاحتفاظ به، والتمسك به، هو ما يعرَف في الشارع الكوردي، ولمن يتعايش مع المفردة ، بـ«**الجزيرة**»، وهي أكثر من كونها المعايَنة بـ«**الجزيرة السورية العليا**»، لحظة الرجوع إلى الأحداث الدراماتيكية التي رافقت الحرب العالمية الأولى، وما تمخضت عنه اتفاقية «سايكس- بيكو»، بصدد مفهوم «وطن قومي كوردي» يتردد هنا وهناك باسمه، هو «كوردستان»، وعنف المجابهات التي تأرشفت في التاريخ الحديث عقب عشرينيات القرن الماضي، وما أقلها حجماً، كون القوى التي تحكمت بمسار التاريخ، وأخضعت الكورد أكثر من سواهم لأدوات ضبطهم العنفية، هي التي مارست مثل هذا التوجيه والتمويه، وما يتطلب أرشفة هو الكثير الكثير غير المدون رسمياً .

إذ إن كثيراً ما تستدعي الجزيرة كاسم، بالنسبة للبعيدين عن المنطقة، جزيرة «بوتان»، أي «ابن عمر، بالتسمية العربية»، وثمة من ينتمون إليها، فيكونون «جزيريين» في لهجتهم وربما عادات وتقاليد لهم تربطهم بها، سوى أن المقيم في سوريا الحالية، يعلم أن مجرد لفظ «الجزيرة» يعني هذه التي أتحدث عنها، وضمن حدود معينة، هي الداخلة في نطاق الدراسة غالباً، تلك التي ينتسب إليها الكورد، أو ينسّبون أنفسهم إليها، ومع توسيع فيها، تكون «الجزيرة: جزيرة بوتان» ذاتها جزءاً منها، إلى جانب المدن التي تتواجد في الشريط الممتد امتداد الحدود وأعمق صوب الداخل«نصيبين، ماردين، آمد ...الخ ».

ولعل الذي استوقف الباحث الفرنسي جوردي غورغاس إزاء هذا المعترك المركَّب يشجّع على المتابعة وحتى تثمين الجدية اللافتة لديه، وهو ما يمكننا إيراده هنا (يسكن السكان الكورد الخاضعين «الخاضعون، ملاحظة من المؤلف»،للانتداب الفرنسي ثلاث مناطق ضيقة ومنفصلة عن بعضها، على طول الحدود التركية. لذلك لا يمكن الكلام عن «كوردستان سورية» بل عن «مناطق كوردية في سوريا»، بيد أن هذه الأراضي الحبيسة الكوردية تشكل امتداداً طبيعياً للأقاليم الكوردية في تركيا والعراق .

الأولى، في الجزيرة العليا بين دجلة والضفاف الغربية لحوض الخابور، طولها 250 كيلومتراً وعرضها، في بعض الأمكنة، 30 كيلومتراً. وهي شمال سهل الجزيرة ويحدها جبل نورالدين، وفي الجنوب مرتفعات جبل عبدالعزيز. وسلسلة الجبال الوحيدة التي تغير هذا المنظر الرتيب هي كراتشوك داغ «769 متراً» الممتدة غرباً من ليلك «Lailak «داغ» 710 . وتشكل التلال الصغيرة القائمة على أطلال قُرى قديمة، جزءاً آخر من طبيعة المكان. وفي حين لا توجد في الجزيرة السفلى زراعة إلا على ضفاف الخابور، فإن الجزيرة العليا، المعروفة من الانتداب الفرنسي بـ «منقار البط» السوري تمتلك، بفضل طبيعة أراضيها، أفضليات لتربتها الجيدة، ومياهها، ومناخها. وبفعل هذه الأفضليات تعيش هذه المنطقة منذ الاتداب وفيما بعد استقلال سوريا نهضة اقتصادية هامة تحولت معها إلى «إهراء». وتنتج الجزيرة، إلى ثروتها الزراعية، كامل النفط السوري منذ 1956 .

الثانية، على ضفاف الفرات، طولها ستون كيلومتراً وعرضها أربعون.

والثالثة في كرداغ «جبل الأكراد، وفي لتشي، غرب حلب، طولها أربعون كيلومتراً. وعرضها أكثر قليلاً وهي منطقة جبلية يبلغ ارتفاع

بعضها إلى 1200 متر. ويتصل كرداغ من جهة الشمال بالسلسلة المقابلة لطوروس في كوردستان التركي «التركية، م، من المؤلف». وينعم كرداغ بمستوى هام من الأمطار، وبمجاري مياه سيلية. وتنتج هذه المنطقة كمية وافرة من الفواكه المتوسطية «التين والرمان، والتفاح، والزيتون»، ومن الحبوب «قمح وشعير». وتلعب تربية الماشية، في المنطقة الشمالية الغربية من الجبل، دوراً هاماً في الاقتصاد المحلي)[1].

ومن المؤكد أن حديث المؤلف عن البنية الاقتصادية، يتطلب مناقشة، جهة الإدارة السياسية من قبل الحكومات السورية المتعاقبة، وأساليب تعاملها مع «المناطق» الكوردية، وإن لم تعنونها .

سوى أن هذا التحديد الجغرافي يفصح عن إجراء تقسيمي للجغرافيا الكوردية، ليس كما يراهن عليها الكورد بالذات، وإنما كما هو مشار إليه لدى آخرين، ممن هم خارج دائرة النسب الكوردية.

أعني بذلك، ما هو مختلف عليه في التذكير بالمساحة، وعدد السكان، والمختلَف عليه من الزاوية السياسية، ومن الجهة القائمة بذلك، سوى أن هناك اعترافاً تاريخياً بذلك، أي منذ أيام الدولة العثمانية، وحتى في العصر الحديث «النص الأول من القرن العشرين»، خضعت المنطقة الكوردية في عموميتها، وما يتعلق بالكورد، للكثير من التجاذبات السياسية المنشأ، وأن أي متابع لما يجري في المنطقة عموماً، وعلى الصعيد الكوردي، سوف يتلمس خطورة دورة «بيضة القبان الكوردية»، في المساومات، وفي تعميق الخلافات، وفي التقاربات مصالحياً.

---

(1) غورغاس، جوردي: الحركة الكوردية التركية في المنفى، ترجمة:جورج البطل، دار الفارابي- بيروت، آراس- أربيل، ط1، 2013، ص 48 .

أي ما دوَّنه الرحالة العثماني المعروف أوليا جلبي «1611–1682 م» قبل أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن (عن حدود كوردستان : يصل الطرف الشمالي لهذا البلاد إلى «أرضروم» وفيها وان وهكاري والجزيرة والعمادية والموصل وشارزور وحرير واردلان وبغداد ودرنة ودرتنكَ، إلى أن تصل إلى البصرة، فهي بلاد يبلغ طولها «70» مرحلة سير، وكوردستان هذه بلاد صخرية، تقع بين العراق العربي وبلاد عمان، وينتشر بين جبالها **وفي زهاء ستة** آلاف عشيرة وقبيلة.. أما عرض كوردستان فليس بقدر طولها. يحدها من الشرق حدود العجم، ومن حرير وأردلان وحتى بلاد الشام وحلب يتراوح بين «20– 25» مرحلة، والجزء الضيق من هذا العرض يكون خمس مراحل، ويوجد في هذا الإقليم خمسمائة ألف مقاتل من حملة البنادق وجميعهم شافعيون ولهم «750» قلعة وجميعها عامرة. وتنتشر بينهم عدة ألسنة مختلفة مثل «زازا لولو، هكاري، عونيكي، محمودي، شيرواني، جزيري، بساني، سنجاري، حريري، أردلاني، صوراني، خالتي، جكواني، عمادي ورزكي» «المترجم يخطّئه، واعتبارها لهجات».) [1].

---

(1) رحلة أوليا جلبي في كوردستان عام 1065هـ–1655م، ترجمة: رشيد فندي، طبعة خاني دهوك، ط1 2008 ، ص 99 .

وينظَر أيضاً في كتاب ويليام إيغلتون: القبائل الكوردية، ترجمة: أحمد محمود خليل، مؤسسة موكرياي أربيل، كوردستان، 2006، بخصوص «البنية الاجتماعية لدى الأكراد. ص 19–25».

وللتوسع، يمكن النظر فيما تطرقت إليه الدكتورة فائزة محمد عزت، في كتابها: الكورد في إقليم الجزيرة وشهرزور في صدر الإسلام 16–132هـ/ 637–739 م «دراسة في التاريخ السياسي»، مطبعة خاني، دهوك، د.ت، كما في قوله (أطلقت على الجزيرة تسميات عديدة...المناطق الكوردية من الجزيرة عرفت في المصادر اليونانية القديمة باسم كاردوخيا وأهلها

بـ«الكاردوخيين»... وقد حدد الجغرافي اليوناني سترابو أراضي كاردوخيا، بأنها تقع على كلتا ضفتي نهر دجلة..ص27... وفي مكان آخر: أشارت المصادر العربية إلى وجود الكورد في الجزيرة والموصل في سياق تناولها الفتوحات الإسلامية، وهذا يدل على وجودهم في المنطقة قبل الإسلام وأن جزيرة ابن عمر كانت تعرف بجزيرة الأكراد مما يثبت أن الكورد كانوا يشكلون الغالبية فيها، كما أن أوليا جلبي يرجع وجود الكورد في الجزيرة إلى زمن نوح عليه السلام، إن صح رأيه فإنه يدل على قدم الكورد فيها .ص44...وفي الخلاصة: إن الكورد يعد عنصراً مهماً من عناصر السكان في الجزيرة وشهزور استقروا فيها منذ عصور سحيقة في القدم، في أجزائها الشمالية والشمالية الشرقية، وامتدت بلادهم إلى حدود أرمَينيان، وقد سكنتها أعداد كبيرة من الطوائف والقبائل الكوردية..ص180...الخ).

وما يأتي محسن سيدا على ذكره مفيد لنا، إذ يشير ضمناً إلى مصادر إسلامية قديمة لها دلالتها جهة تعقّب حركية التاريخ والأسماء المستخدمة جغرافياً، وذلك في بحثه المعنون بـ«أكراد الجزيرة في المصادر العربية الإسلامية» وفي الموقع الالكتروني «مدارات كرد»، كما في الآتي (يشكّل إقليم الجزيرة امتداداً طبيعياً لإقليم الجبال من جهة الشرق، وقد أطلق الجغرافيون المسلمون على المناطق الشمالية الواقعة بين نهري دجلة والفرات اسم الجزيرة أو البلاد الجزرية، فتباينت تسمياتها وحدودها ونسبة بعض المدن إليها بتفاوت الأزمنة والبلدانيين، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد اعتبر ياقوت الحموي (1187 – 1229م) في القرن الثاني عشر الميلادي مدينة خلاط قصبة أرمينية بينما عدّها ابن عربشاه (1389 – 1450م) في القرن الرابع عشر الميلادي، جزءاً من «بلاد الأكراد» ..

ولقد قسّم الجغرافيون بلاد الجزيرة تقسيماً قبلياً إلى ثلاث مناطق وهي:

ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر

وتنسب إلى البلاد الجزرية مدن وبلدات وقرى هامة أسهب البلدانيون في تعدادها ووصفها، ومن أشهرها الموصل وآمد والرها ورأس العين ونصيبين وجزيرة ابن عمر وسروج وقرقيسيا ودنيسر وسنجار وغيرها، بعضها مازال قائماً و باسمائها التاريخية و بعضها الآخر اندثرت وبادت أو نشأت على أنقاضها أو بجوارها مدن وبلدات جديدة وقد أطلقت على المدينة الواحدة

إن هذه التأشيرة الجغرافية والسكانية والاعتبارية في آن، تمتلك قدْراً مؤثراً من الزخم التاريخي، وذلك من ناحية إمكان التحدث وبتنوع عما تكون عليه هذه المساحة الهائلة مقارنة بالأقاليم الأخرى من حمولة استراتيجية وتنامي الأطماع فيها منذ أزمنة طويلة، من جهة، وما يكون عليه رد فعل الساكن الأصلي فيها «الكوردي» حين تطوى صفحته، ويُساء إليه، ويكون أكثر حضوراً سلبياً من الغريب بالذات، لأن الغريب يخفي رهبة، أي ما يجعله منبوذاً من جهة ثانية، وأنه على قدر هذا

أسماء عديدة حسب لغات أو نطق شعوبها وهذه الظاهرة ظاهرة تسمية المدينة الواحدة بأسماء عدة لها امتدادات حتى يومنا هذا، وعلى سبيل المثال مدينة الحدث والتي تعد إحدى الثغور الجزرية التاريخية والواقعة بين سميساط ومرعش وملطية «تسميها الأرمن كينوك و تسميها الأكراد الهت والعرب تسميها الحدث»...).

ويشار أخيراً وليس آخراً إلى كتاب المطران جورج صليبا: برية نصيبين في حياة الخوري ملكي، مطبعة توما- بيروت، 1984، وحديثه عن نصيبين مثلاً ، حين يقول (نصيبين «مدينة الحدود» وهي الفاصلة بين المملكتين الرومانية والفارسية وإحدى حواضر السريان التاريخية والمهمة جداً في تاريخنا الاكنسي.ص 18، ومن ثم مدينة القامشلي: في البرية الممتدة على بعد البصر في أرض الجزيرة العليا، وفي جنوب الجمهورية العربية السورية اليوم، وفي بقعة سندسية غنّاء تزيّنها تربة معطاء...أجل! في هذا الجزء من العالم اليوم، تقوم مدينة القامشلي وارثة حضارة نصيبين ومجد ما بين النهرين...ص21.. فقصدها السريان وعمَّروها واستقروا بها مع عائلات أخرى كريمة من المسلمين.ص22). تلك نقطة خلافية جهة التسمية، إذ إن جمال التسمية «عائلات أخرى كريمة ...»، لا يخفي ما كان يجب التذكير به، حيث يسهل النظر في المسمَّى بما ليس دينياً بصفة عامة: السريان، وما هو ديني محض: المسلمين، وبنية المتصور الثقافي والمعتقدي. إنما المفيد هو في الحديث عن برّية نصيبين، أي ما يلغي الحدود المصطنعة ودلالتها السياسية، وإلحاقها بما هو سلطوي تاريخي.

الإقصاء، يسهل تصور الطابع الإخراجي السيئ عنه قصداً من جهة ثالثة.

عند هذه النقطة ثمة ما يدعو إلى المكاشفة الجغرافية النَّسب، وهو أن «الجزيرة» التي أعنيها، في وجدان عامة الكورد، أكثر من اعتبارها المسماة في النطاق «السوري»، فثمة نصيبين، وماردين، و«بوتان»، والتي يعرَّف بها رسمياً «جزيرة ابن عمر»، وهي مفارقة فائقة السخرية والمساءلة عن بنيان جغرافي، عمراني، سكاني عهد إليها في أن تكون باسم جزيرة «ابن عمر»، وهي معمَّرة ولها صك ولادة قبل أكثر من دزينات جدود لابن عمر هذا، وهذا ما يذكّرنا بجملة الأسماء التي أطلقت بفعل سلطة قائمة على ما عداها، بالطريقة التي تذكّرنا با تحدث عنها تودوروف، كما في «المالكية، الجوادية، القحطانية، اليعربية...الخ» إلى جانب قرى لا تتكلم إلا بالكوردية، ورغم ذلك أكرهت على أن تكون كوردية بأسماء فارضة.

لا أعني بذلك أن كل الذين يقيمون في المنطقة هم كرد، ويجب أن تكون الكوردية استثناء تاريخ، فثمة توارد حضارات، أمم، شعوب، قوميات، ألسنة تنفست في مرابعها وجهاتها، ومنذ آلاف السنين، وللعرب النصيب الأقل، إن تم اللجوء إلى التاريخ الفعلي، ونوعية التواجد فيها.

وبعيداً عن أسلوب السجال، أورد هذه المقبوسات، وما تثيره من تساؤلات وتصورات:

(أطلق اليونان اسم سورية على المنطقة المحيطة بمدينة صور، ثم توسعوا في استعماله، فأطلقوه على المنطقة الواقعة بين جبال طوروس في الشمال وسيناء في الجنوب ، والبحر المتوسط في الغرب، والبادية في الشرق... إذاً سورية تسمية سياسية لسلطة متحكمة فيها من الخارج،

يونانية جرّاء السيطرة عليها»- اتباع نظام الأجناد في تقسيم بلاد الشام....وأُدخلت الجزيرة في أجناد الشام لأنها من فتوح أهل الشام، إلا الموصل والهيت..) [1].

وفي مثال آخر، حيث التوسع في المفهوم الجغرافي لمنطقة لها عراقة تاريخية، حيث ترد في الذهن عبارة «بلاد ما بين النهرين» وعراقة الأمم والشعوب التي استقرت فيها، نقرأ:

(إن عبارة بلاد ما بين النهرين التي تحدد معنى الحوض المائي الهيدروليكي المكون من هذين النهرين «دجلة والفرات» راسخة حسب الواقع....في هذا الحوض المتسع، نهران مع روافدهما، ففي الغرب- الفرات- وفي الشرق- الدجلة- وكلاهما ينحدران من قلب جبال الأناضول الشرقية، حيث يتولدان على مقربة من بعضهما في بدء انطلاقتهما....في لشمال، نجد الجزيرة وهي منطقة من النجود والهضبات المسطحة التي شجتها الأنهر بأعماق كبيرة مولدة أودية شديدة الانخفاض، والتي تنتهي مترابطة مع سفوح سلسلة الجبال الشمالية...يعد تاريخ ما بين النهرين اكتشافاً حديثاً، وحتى القرن الثامن عشر، لم يكن يعرف، في العالم الشرقي، سوى ما جاء به الكتاب المقدس أو بعض المؤلفين المتأخرين من اليونان والرومان، مثل بع الوقائع أو المشاهد، أو الذكريات المبهمة الخرافية) [2].

---

(1) عطوان، د. حسين: الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي، دار الجيل، بيروت،ط1، 1987، ص 19-20-21.

(2) جان كلود مارغرون: السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية، ترجمة: سالم سليمان العيسى، دار علاء الدين، دمشق،ط2، 2006، ص 9-18-20-29 .

وفيما يتطرق إليه باحث فرنسي في الجغرافيا «العثمانية»، ومن ذلك، ما لفت نظري:

(أزناور: بلدة في تركية الآسيوية «الأناضول» في ولاية كوردستان، لواء ماردين. ص 54- اسعرد، سعرد، في ولاية كوردستان. ص 64- آق كيسي، في ولاية كوردستان،ص 85- هناك ولاية أرضروم- شهرزور- جزيرة عمريه: مدينة في تركية الآسيوية، في ولاية كوردستان، لواء ماردين، على جزيرة في نهر دجله.ص233- جلك: مبلدة في تركية الآسيوية، في ولاية كوردستان، لواء ماردين على نهر دجلة.ص242- زاخو: مدينة في تركية الآسيوية ، في ولاية كوردستان، لواء ماردين على نهر الخابور، أحد روافد دجله. ص285- غرزان: بلدة في ولاية كوردستان، لواء أسعرد . ص370- ماردين: مريد- مارد، مدينة في تركية الآسيوية، في ولاية كوردستان. ص 452- نصيبين، نزبين: أنتيوخيا ميغدونيكا، نيسيبيس ، بلدة في تركية الآسيوية ، في ولاية كوردستان، لواء اردي على أحد روافد الفرات. ص479- نزيب: بلدة مركز ناحية في لواء الرقة، ولاية حلب. ص 479) [1].

تلك قائمة من الإشارات ذات الطابع الجغرافي، ولكنها من حيث المحتوى تضعنا في نطاق تاريخي يعلّمنا بما يجب أن نعلَم وهو أن متوخي الحقيقة هو الذي يصغي إلى هذا التنوع على مستوى الألسنة التي عاشتها المنطقة، على الأقل من خلال المثار تاريخياً، وما في ذلك من تأكيد على أن التوترات التي عرفت بها لها صلة قوية بهذا التنوع

(1) موستراس، س: المعجم الجغرافي للامبراطورية العثمانية، ترجمة وتعليق : عصام محمد الشحادات، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2002، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز .

الجاري اختزاله هنا وهناك، وأن وراء هذا الاختزال ذهنيات كيدية، أي لصوصيات تعتمدة مركزة السلطة وتحتكر بها الحقيقة.

تغدو الجغرافيا- إذن- ساحة حرب مثلما أنها أبعد ما تكون عن التأييد أو الرفض لهذا الجانب أو ذاك، وهي منذ الأزل كانت أبعد ما يكون عن هذا الطرفية، فهي نشأة وتكويناً تتبع قانونها الخاص في التنوع أو اللاأحادية، فالحروب التي تندلع، وأعمال التدمير، والقتل الجماعية، والنهب والسلب، وما لا يحصى من طرق الإيقاع بالآخر، وما يخص إيذاء البيئة أو الطبيعة والكائنات، لا دخل للجغرافيا فيها، سوى أنها قد تبتلي بكل ما أتينا على ذكره، أن تصبح حاضنة حروب وويلات وجرائم، وأساليب غاية في العنف الدموي، والتصفيات، ومن ثم تزييفها هي ذاتها، عبر إحداث تغييرات في بنيانها البرّي أو الطبيعي، أو المناخي، أو كل ذلك، ويكون للإنسان نصيب وافر في جملة العمليات التي تستهدف الجغرافيا، أو تكون هذه قاعدة انطلاق، بقدر ما تغدو الفاعلة في معاودة الحروب زمنياً، بقدر ما تسهم في إبراز جوانب من القوة غير معهودة سابقاً .

ومن المؤكد أن الجغرافيا عمياء لتدلي بشهادتها، صمّاء لتعيد على الأسماع ما تردَّد في محيطها الطبيعي، خرساء، حيث تعجز عن الكلام، ومن هنا كان التراكم الملحوظ لكل هذه الخبريات التي تعنيها، أو تجعل منها طرفاً، كما لو أنها محوَّلة إلى أن تصف ما وقع في مداها، وهو ما يجري باستخدام فنون قول مختلفة، يشهد التاريخ بتنوعها، وهذا ليس في مصلحة المقيم الجغرافي، أي من يعيش معها، وليس من خلال تطويعها لخدمته صناعياً، كما هو التاريخ العمراني أو المدني، وما في ذلك من تداعيات ذات علاقة بالتصدعات المتتالية بين الجغرافيا كحقيقة طبيعية، بيئية، والجغرافيا كحقيقة موجَّهة، بين الإنسان الذي يتفاعل معها، وليس معه إلا قواه الطبيعية، وذاكرته، ومن يسلسل القياد

لأهوائه، ويركب موجة مغامراته هنا وهناك، معتمداً جملة القوى التي تمكّنه من احتوائه داخلها، ليصبح المنذور من أجله، وليس لحساب نفسه.

نحن هنا، في مواجهة جغرافيات خارج مداراتها الطبيعية، جغرافيات لا حول لها ولا قوة، بما أنها جرّدت من القوة الطبيعية: بثرواتها المختلفة، وجرى احتكارها، بغية تسخيرها في خدمة مصالح، لا يُستثنى منها المنتمي الأصلي إليها، كما يقال، ولا بد أن وراء هذه اللّعب في التاريخ جملة حكومات، وسياسات، مواقع قوى متحركة، تلوّن في بناها البيئية بالذات، وأن الذي يمكن التعرُّف عليه، هو الذي يُترَك في عهدة التاريخ، وتقصّي ركائزها المعتقدية، بمجتمعاتها.

لا بد أن سيرورة الوقائع التاريخية من أرضية جغرافية، من بشر، من كائنات، من ثروات، من أساليب قوة وهيمنة، وتطويع أقاليم تعظيماً لشأن السلطة هذه أو تلك، وتقديس القوة الأبرز.

وما نحن ساعون إليه، هو خاصية التغريب الجغرافية المركَّبة:

كيفية نزع الجغرافية: زماناً ومكاناً، من اسمها الذي يرتد بها إلى تاريخ سحيق شفاهياً.

كيفية التعريف بالجغرافيا، وهي في حكم المحتلة، بوصفها المكتشفة اسماً وكياناً وثقافة.

كيفية التوغل في أعماقها، وحصر ثرواتها، لأن الجغرافيا لا تعدو أن تكون لائحة ثروات، وضمناً: الموارد البشرية، والبشر بقواهم الحيّة، وقد صنّفت ووجّهت لصالح القوة المسيطِرة.

وصولاً إلى النقطة، يكون في المستطاع التأكيد على فعالية الكتابات المحرَّرة، من قبل من شهدوا مظاهر غزو، أو احتلال، أو مداهمات، أو صراعات، أو مشاهدات، تكون الجغرافيا هذه ساحتها الكبرى، أو حيث

تتحول إلى موضوع للنظر، وكما تقرّرها ذائقة الكاتب، أو الرحالة «هذا الاسم الذائع الصيت»، والذي يشمل فئات كثيرة من حيث الوظيفة أو الدور والثقافة .

فالرحلة رصيد متجدد في التاريخ، ولها لغاتها، وأنظمتها السردية، وطرق صياغتها، ووسائلها التي تمنحها صفة «أدب الرحلات»، مثلما أن لها مستويات من القوة والهوية الاعتبارية أيضاً .

الرحلة لا تتكلم، لكنها تنقل إلينا جملة أصوات لمتكلمين، وخلفياتهم الاجتماعية والسياسية، ومن ثم الغرض من كتاباتهم، وما يمكن أن يفيدوا قرآءهم في النوعية والتصنيف والمكانة.

والحديث عن الرحلة، والرحّالة وسرديات كل منهما، والعالم الذي يتم نسجه عبرهما، أو باسمهما أكثر من كونه ذا شجون، سوى أن أدبيات الرحلة لا تخفي سحرياتها، ومن هنا، يكون التأرجح بين المعتبَر حقيقة، والمقدَّر تقويلاً أو تلفيقاً، وما يتطعم من الحالتين .

في هذا الحديث يكون حضور كل من «الأنا والآخر»:

الأنا باعتباره متكلّم السرد، وفاعل الخطاب الموجَّه إلى قارئ ما أو أكثر.

والآخر، بوصفه موضوع الأنا، منطوق السرد، ومادة الخطاب المتشكلة.

والأنا كموضوع لآخر يجري إقراره على مستوى كشف مستوى الحضور في النص.

والآخر الذي يسمّي الأنا بالذات، لأن فيه تمثيلاً، ومدى حضور الحقيقة في كل ذلك .

وأحسب أن الرحلة كانتقال من عالم إلى آخر، أو من منطقة إلى أخرى، فيها الكثير من المؤثرات التي تتشكل عبرها مشاهد لا تخفي

مفارقاتها، أو تباينات الموقف وخاصية الذات الرحالة، بقدر ما يكون التباعد الجغرافي بينهما قائماً، وتبعاً لذلك، تكون «منطقة» الرحلة معادة في هيكليتها، ونشأتها الدلالية، والذين ينتمون إليها، كما لو أنهم في التكوين والتكلم والتفاعل الجغرافي، تعاد صياغتهم وطرق تحاور أو تواصل مختلفة مع بعضهم بعضاً انطلاقاً من مدوّن سرديات الرحلة: رحلته.

في الوقت نفسه، لا تخفي الرحلة جموح الرؤية الخيالية وسياسة تشكيل المعايَن والجهة المعنية بها أو مرجعيتها الثقافية، ونباهة في التصوير، حيث إن المتردد في متن النص الرحلاتي هو هذا الحضور الأثير لمفهوم «التلاقح»، أو ما يكون تطعيماً، أو في بعض الصيغ «هجنة: هيبرايد»، أي إن الرحلة ذات دور في تجسيد روابط متفاوتة المقامات.

ولهذا، فإنه (قبل أن تكون الرحلة تجربة لاكتشاف الذات والغير، فهي جسر للانتقال من ثقافة، إلى ثقافات أخرى، بل هي إمكان لانتقال الثقافة، وارتحالها عبر ذات الرحّالة، لتصير الرحلة رحلتين: رحلة الفرد القائم بالرحلة، وثقافته الخاصة، ورحلة الثقافة التي ينتمي إليها .) [1].

ومن المؤكد أن نص الرحلة ذو طبقات وممرات ومعابر متعددة الاتجاهات ومتاهات أحياناً، وذلك انطلاقاً من ثقافة الرحالة، أو من يمتلك صفة الرحالة، أو جانباً منها، كما هو المتضمَّن في هذا الكتاب، حيث إنه ليس بالضرورة أن يكون كل ما مدوَّن عن منطقة ما، وأهلها، أو جهة فيها على علاقة مباشرة بوجود متكلم، مخاطِب ضمني، هو الرحالة، إنما تكون مشاهدته للجاري وصفه، والحديث عنه، ومن ثم

(1) الساوري، بوشعيب: صورة الآخر في رحلات عربية «من القرن العاشر الميلادي إلى القرن الواحد والعشرين»، دار النايا، بيروت، ط1، 2014، ص 23.

التعريف به، ذات علاقة رحّالاتية، إن جاز التعبير، وهذا يعني أننا فيما لو انطلقنا من بنية «الرحلة» فسوف نجد فيها حالة عدم استقرار، لأن مجرد تهجئة الكلمة هذه حتى يتناهى إلى الذهن وجود مشهد انتقالي، أي من يكون قادماً من جهة إلى أخرى، وأن ما يشغله أو يهتم به، أو يودعه قرطاسه، يحمل طابعاً من سردية الرحلة قليلاً أو كثيراً، بقدر ما يكون المدوَّن يفصح عن حراك اجتماعي، ثقافي، والكشف عن جوانب من وجهة نظر كاتبه .

أنوّه هنا إلى نقطة شديدة الوعورة، أو الخطورة، تتعلق بمرجعية نص الرحلة، وأعني بذلك أن ما يعتمده الرحالة، أو من في نطاقه بصورة ما، يرتد إليه، لأنه يتسقط أخباراً، كما أنه يكتب بتوجيه ذاتي، حتى لو كان مكلفاً، وحتى لو أنه اتصل بأشخاص معينين، بجهات معينة لها صفة رسمية، طالما أن المكتوب يفصح عن مسار ثقافي، فيه من ثقافة السماع/ الشفاهة الكثير، وما أكثر المشاهد التي يجري ابتداعها، وتحديداً، حين يكون الموصوف في خانة «الآخر» الأشد تعرضاً لتصوير مفارق، وفي أزمنة يصعب الوصول إليها، أو التأكد من حقيقة ما كتب عنها، أو أمكنة حديثة العهد زمنياً، لكنها صعبة المنال، كما في كتابات الانتروبولوجيين «الأنّاسين».

لهذا يكون السؤال التالي في محله، وهو (كيف يمكن الوثوق بالرواية المسموعة، خاصة وأننا نراها بأم العين تشوُه الحاضر؟ من المستحيل منحها الثقة، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالعصور السحيقة القدم، عندها يجب التزام الصمت) [1].

(1) ديتيان، مارسيل: اختلاق الميثولوجيا، ترجمة: د . مصباح الصمد- مراجعة: د . بسام بركة، منشورا المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008، ص 156 .

لدينا جملة عوائق تحُول بيننا وبين مصداقية الخبر المذاع أو المنشور، أولها، ما يعود إلى وجود سلطة قائمة بنوعيتها، وطريقة تعاملها مع المنشور، أو بصدد محتواها السياسي، أي مدى تمثيلها لعامة الناس الذين في مجتمع يخضع لها، فذلك من شأنه كبح جماح الحقيقة، أو تعريضها لما من شأنه البروز مشوهة، أو دون اسمها. وثانيها، ما يرتد إلى الناس الذين يتم توصيفهم، وموقعهم من الثقافة: من القراءة والكتابة، وطريقة احتكاكهم بالعالم الخارجي، إذ قد يتطلب التعرف على ما كتب عنهم زمناً يطول، أو يخفى عنهم هذا النص أو ذاك، لأهمية خاصة فيه.

ذلك ما يسمح لنا في أن نتحدث عن طائفة من اللصوصيات، وليس ما يعود إلى الكوردي وكونه اللص التاريخي الاستثنائي، لأن خطابات الرحالة، أو ما له صلة بهم، قد تحوي من حالات أو هيئات اللصوصية الكثير، على مستوى التعبير، أو تدليس معلومة، أو إسقاط واقعة مركَّبة، وهذا يسمح لنا بتوسيع قاعدة اللصوصية، اللصوصية التي لم تغب عن التاريخ، إنما كانت من بين أكثر العلامات الفارقة معايشة ومتابعة وتحولاً وحضور أثر، على قدر تعرُّض المجتمع، أو الذين يقيمون في منطقة معينة، ولهم اعتبار معين، لتجاذبات سياسات محلية، إقليمية ودولية، وتلك الرهانات التي يتجلى أثرها في المواقف السياسية وتداعياتها الاجتماعية وتسرُّبها، في هيئة حكايات، قصص، طرائف، مفارقات تاريخية، تصورات مسبقة...الخ، وتأثر المكتوب بها.

إزاء ذلك، يكون من المؤثِّر التنبه «على الأقل»، إلى نماذج كتابية تناولت الجزيرة هذه، وهي خارج الحدود «السايكس- بيكوية»، أي من حيث رحابة الجغرافية من جهة، ولأن أغلبية ما هو معروض منها،

خارج هذه الدائرة السياسية الحديثة النشأة، وأما ما دوّن أو نشِر بعدها، فهي ذات نجاعة من حيث التأكيد على أهمية المثار، وما يمكن أن يتردد طي المناقشة.

إنما حسبي أن أشير في المختَتم هنا إلى الذين قدَّموا إسهامات تضيء معلَم فكرة الكتاب، رغم أن الذي أتناوله لن يندرج حرفياً، وكما هو الأسلوب المتَّبع في الكتابة في دائرة اهتماماتهم بصفة عامة،بقدر ما يكون هناك تقصّ خبري وثقافي ونقدي بالمقابل، وليبقى الوارد ذكره حضور على مستوى التنوير العام تاريخياً، وما يمكن فائدتنا حديثاً إن في توفير الجهد، أو تعميق المسمَّى.

ومن هذه الأسماء: أرشاك بولاديان، أحمد الخليل، حيدر لشكري، فائزة محمد حسن، حكيم أحمد خوشناو، محسن سيدا...الخ [1].

---

(1) ينظر في أعمالهم التالية:

أرشاك بولاديان: الأكراد من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادي، نقله إلى العر بية: مجموعة من المترجمين، دار التكوين، دمشق، ط1، 2004، وهو مصدر مهم في هذا الإطار، لأن المؤلف أجنبي، وأرمني، وهذا يضفي على البحث قيمة تاريخية لافتة بمكانتها.

د. أحد محمود الخليل: صورة الكورد في مصادر التراث الإسلاي دار آراس ، أربيل، ط1، 2012، خاصة، صفحة 51، وما بعد.

د. فائزة محمد عزت: الكورد في إقليم الجزيرة وشهرزور في صدر الإسلام 16-132هـ/ 637-739 م «دراسة في التاريخ السياسي»، المصدر السابق.

حيدر لشكري: الكورد في المعرفة التاريخية الإسلامية «دراسة تحليلية- نقدية»، سبيريز، أربيل، 2004 .

رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب جامعة صلاح الدين في 2004، وهو يتميز بعمق متابعته لموضوعه.

د. حكيم أحمد خوشناو: الكورد وبلادهم عند البلدانيين والرحالة المسلمين 232-626هـ/ 846-1229 م «، دار الزمان، دمشق، ط1، 2009 .

أما الأقرب إلى الحدث تاريخاً وجغرافيا، فهو المتمثل في الكم اللافت من المقالات «حلقات بحثية» نشرها الباحث الكوردي المعروف الدكتور محمود عباس، والمقيم في الولايات المتحدة الأميركية، وهو في الأصل من أبناء المنطقة، ومطَّلع على وقائعها كثيراً، ولهذا فإن مقالاته، أعني، كما تقدَّم: حلقاته البحثية ذات الصبغة التاريخية والجغرافية والسياسية، ذات قيمة علمية كبيرة، ويستحيل تجاهلها من قبل من يتناول المنطقة هذه، إن من جهة التعامل بين الكوردي والعربي، أو بين الكورد أنفسهم[1]، ولا بد أن بنية هذه الكتابات حفّزتني أكثر للانشغال بهذا الموضوع.

وإذا كان لي أن أذكّر بما أسهمت فيه، وتوقفت عنده، ولو بشكل متواضع، فأراني في العديد مما تطرقت إليه، على تماس بمحتوى الكتاب هذا، قديماً وحديثاً [2].

---

(1) من ذلك،حلقاته النقدية حول الكتاب الضخم للباحث السوري محمد جمال باروت عن منطقة «الجزيرة»، وهو في سعي إلى إثبات صفتها العربية، وتجريد الكورد من كل انتماء حقوقي إليها تاريخياً وجغرافياً، وتحت عنوان «مصداقية الباحث محمد جمال باروت»، في أكثر من موقع كوردي وغيره، كما في موقع «الحوار المتمدن» الالكتروني،بدءاً، من الحلقة الأولى في «11-2016/5»، وحتى الحلقة الحادية عشرة، في «21-10/ 2016»، وحلقاته الأخرى المدرجة تحت عنوان «من الإسلام إلى التعريب»، في الموقع ذاته، كعيّنة منبرية طبعاً، وفي سبعة أجزاء «11-9/ 5-10/ 2015»، وكذلك، ما له صلة بما هو تاريخي، في إطار «ماذا فعل المربَّع الأمني بغربي كوردستان»، في الموقع المذكور، وفي ثماني عشرة حلقة حتى الآن «14-12/ 2014- 3-7/ 2016»...الخ.

(2) بدءاً من كتابي «صورة الأكراد عربياً – 1992»، ومروراً بكتابي «الكورد في مهب التاريخ- 1995»، وعشرات المقالات المنشورة انترنتياً، تحت عنوان «الاستعجام»، قبل أكثر من عشر سنوات «موقع عفرين نت، خصوصاً»،

وما يتركز عليه البحث، يستغرق أزمنة متفاوتة في مداها الاجتماعي، وسمتها السياسية، وأرضيتها الثقافية والفكرية، فثمة العربي- الإسلامي، وثمة الأجنبي «الغربي» خصوصاً، وثمة ما يلي الغربي عربياً جهة الاعتماد أو الاستشهاد والخلفية الفكرية لكل ذلك.

والذي أشدّد عليه هو هذا الإجراء القائم على ما أسمّيه بـ«القص واللصق»: قص صورة معينة تخص واقعة بشرية، تاريخية واجتماعية، وفق رؤية ثقافية معينة، ولصقها من قبل آخر، دون مقاربة نوعية العلاقة بين «القاص» والذين تعرَّض لهم، أو كانوا موضوعاً له.

إنها اللحظة الحاسمة لمحكّ الكاتب، لأناه الموظَّفة في مضمار التقاط صورة الآخر الذهنية، دونما قدير للمسافة التي يجب أن يحافَظ عليها، أي الكشف عن الرابط الإنساني المطلوب، وما من شأنه الإخلال بـ«الأمن» الأخلاقي- الوجداني»، وزعزعة اليقين بآلية الكتابة الرحلاتية الطابع بالتأكيد، لنكون إزاء الجاري معاينته بعيداً عما هو عليه كياناً وتكويناً.

وليس انتهاء بكتابي «القبيلة الضائعة: الأكراد في الأدبيات العربية - الإسلامية- 2007»، كان لي هذا التواصل والتفاعل مع موضوع هائل الحضور بتداعياته، شاسع الأبعاد بمكوّناته، ويصعب الإحاطة به نظراً لطابعه المركَّب.

الفصل الأول

أين همو اللصوص ؟

«لا أرى خيراً، في أن يكون للمرء أسياد عديدون، فليكن سيد واحد وليكن ملك واحد، ذلك ما قاله أوليس، وهو يخاطب الجمهور، حسب هوميروس، ولو أنه اكتفى بالقول: لا أرى خيراً، في أن يكون للمرء أسياد عديدون، لكان قولاً كافياً .»

اتيان دو لا بويسي: مقالة في العبودية الطوعية، ص 145.

إدراك خصوصية المرء فيما هو مغاير له، وفي التآلف معه،هو الحركة الأساسية للروح التي يكمن وجودها فقط في العودة إلى ذاتها مما هو آخر

هانز جورج غادامير: الحقيقة والمنهج، ص 63 .

في المنطلق اللغوي

قيل أن اللغة بيت الوجود، ولا بد أن هذا الوجود وجودنا نحن، وكما نعرفه نحن، ونأتي على وصفه نحن، ونحدد له مناقب ومثالب تعنينا نحن، وفي المحصّلة، نكون محمولين بسلطة لغة كثيراً ما نعتبر أنفسنا نحن بالذات، على أننا نتكلم، أو نكتب، كما لو أنها لغتنا نحن. ولكن نظرة فاحصة في سبُل التواصل في التلقّي ورد الفعل، تظهر عمق أثرها غالباً، وأن قلة قليلة، يمكنهم الزعم أنهم يتكلمون بلغة وهم في منجى لهم من طغيان قوتها، ولتكون اللغة محك اختبار ومن ثم مكاشفة

لنوعية إرادة القوة الممتلكة في زمانها ومكانها لمن يعتمد لغة قولاً وكتابة، وهذا من شأنه التأكيد بأنه (لا أحد سينكر أن لغتنا تؤثر في فكرنا. فنحن نفكر بالكلمات. فأن تفكر يعني أن تفكر في شيء ما مع الذات وأن في شيء ما مع الذات يعني أن تقول شيئاً ما للذات)[1].

هنا، لا تتوقف اللغة عن بث مؤثراتها، والكشف عن سلطتها، عند اعتمادها أداة تواصل، فهي أكثر من ذلك، خصوصاً جهة تمثيلها لمجموعة القيم المجتمعية ونظام القيم المعمول به، وما في ذلك من حضور سلطوي، لأن اللغة ن حيث الأداء تترجم ما هو رئيس على مستوى الثقافة، وكيف يجري انتظامها، كيف يُحرَص عليها، كيف هو الحضور الفردي داخلها .

وما أعلمه بصورة جيدة، هو أن العربية نشأت في كنف سلطة، وأفصح عن حضورها الرمزي لا بل والديني بمحفّزات سلطوية، وهي في هذا الملتقى/البرزخ، تصل ما بين قاع المجتمع، وأعلى هرمه، والسلطة تعرَف بسيطرتها على الحالتين، ومن عل، يكون إشرافها كذلك.

لذلك، فإنه من الصعب، إن لم يكن مستحيلاً، نسيان البعد المجتمعي، الثقافي للغة، وكيف تسعى السلطة جاهدة إلى إقامة حدود لها، هي قوتها المرئية، وإبقاء الناس داخلها.

وبالطريقة هذه، يمكن تقعيد مفهوم «اللصوصية» قيمياً، باعتبارها الدال الثقافي والاجتماعي الجامع لمجموعة مواصفات منفّرة لعموم المجتمع، لأن اللص لا يُعتد به، فهو خارج المكان، إن جاز التعبير،

---

(1) غادامير، هانز جورج: الحقيقة والمنهج «الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية»، ترجمة: د. حسن ناظم- علي حاكم صالح، راجعه عن الألمانية: د. جورج كتوره، دار أويا، طرابلس الغرب، ط1، 2007، ص 693.

بحكم الموصوف به، وهي «جنّي» الليل في حالات دون أخرى، وعامل الفهلوة، والعيّار المجتمعي، من جهة القائم به في نشل الآخرين، أو إقلاق راحتهم، أو التعرض لهم.

اللص مغفل الاسم، ولكنه قد يكتسب اسماً ولقباً، لحظة التمكن منه، أو عند ذمه.

لصّية اللص هي خفّته، مباغتته للآخرين، زئبقيته، انخلاعه الاجتماعي، وهذا يحيله إلى كائن مطلوب للاقتصاص منه، ولا بد أن الكوردي المعتبَر لصاً في مقام «غير» محمود جرّاء ذلك.

إن تعقُّباً تاريخياً لهذه الصفة، يظهر قِدماً تاريخياً للموضوع وهذا يقرّبنا ن اللغة التي أرشفت داخلها لهذه النوعية من الناس، البشر، وانعكاس ذلك سلباً على المجتمع بالذات.

ربما، وبغية إضاءة معالم الفكرة، كانت الحكاية فاعلة في تعميق أثر الفكرة القائمة أو ترسيخها في البنيان الثقافي والاجتماعي، وخصوصاً، إذا كانت من النوع الذائع الصيت «ألف ليلة وليلة»!

أشير إلى «حكاية هارون الرشيد مع العجمي، في الليلة 331 ، وحكاية علي شار مع زمرد الجارية، في الليلة 358 ، وفي العصر العباسي المزدهر بعلاقاته :

في الأولى، يكون المعتدى عليه هو المسمى بـ«العجمي، ومن ينقَل إليه الخبر من أعلى مرتبة سلطوية«هارون الرشيد »، والعجمي تاجر هنا (فبينما أنا أبيع وأشتري وإذا برجل كوردي ظالم معتد قد هجم علي وأخذ مني الجراب، وقال: هذا جرابي وكل ما فيه متاعي، فقلت: يا معشر المسلمين خلصوني من يد أفجر الظالمين).

والثانية، تدور أحداثها في المدينة هي الأخرى، وتتمحور حول اسم متداول هو «جوان الكوردي» وارتكابه لجريمة قتل «قتل جندياً وقبِض عليه فيما بعد»، ومن قبل بصّارة (هذا الرمل يخبرني أن اسمك جوان الكوردي وصنعتك لص تأخذ أموال الناس بالباطل وتقتل النفس التي حرم اللّه قتلها إلا بالحق ..).

ثمة اختلاق للحكايتين على مستوى السرد، أي لا بد من صنعة مشتركة، بين من تفتق ذهنه عن واقعة كهذه، ومن استساغها ومن ارتآها جديرة بالإلقاء ومن ثم نشرها بين طيات كتاب.

واقعة مركَّبة، منزوعة الزمان، ولكن المكان يشير إلى إمكان تواجد الكوردي، وسهولة التعرف عليه، إلا أن تحديده بالطريقة هذه، كما لو أنه يحمل علامة، وهي سلبية، تظهِر ما هو مسبق الصنع في الواعية الساردة، أو من سمح للحكايتين بأن تكونا في النسج الحكائي المعروف، أي ما يعني الكوردي في الجوار، ويعكس الصورة: صورة رجل شرّير، تقف سلطة ما وراء إمكان فبركة حكايات من هذا الصنف، ومن ثم تداولها، كما لو أن الكوردي يترجَم إلى اللص [1].

لكن عملية تسريب هذا الاسم مع لقب يصبح في مقام النسبة له، أي: اللص الكوردي، والكوردي اللص، لا تمرَّر دون تشريح الذهنية التي سهَّلتها، أو مكَّنتها من أن تأخذ موقعها ضمن جمهرة نصوص «ألف ليلة وليلة»، حيث العلاقة مع «العجمي» وهو لقب بدوره، ولا بد أنه غير عربي، كما يقول اسمه اللااسم، في الأولى، ومع زمرد الجارية، في

(1) تعرضت لهاتين الحكاتين، وحاولت إخضاعهما للنقد التاريخي، في كتابي: القبيلة الضائعة «الأكراد في الأدبيات العربية- الإسلامية، دار الريس، بيروت، ط1، 2007، فقرة» الكوردي نموذجاً حكائياً»، صص 99- 102 .

الثانية، وهي بدورها، ذات علامة فارقة بوصفها «سقط المتاع المجتمعي»، وفي الهرم الأعلى يكون هارون الرشيد بحسبه ونسبه، كما لو أن الكوردي يأتي في الدرك الأسفل، وهذا يسمح لنا بالقول بأن كاتب الحكايتين لا بد أنه على بيّنة من خاصية المجتمع الرئيسة: من المعزَّز فيه فئوياً ومن هو عكسه.

لا بد أن في تحميل الكوردي هذا الدور أو اللقب خلفية تاريخية، ذات دمغة سياسية، حيث استهواء المسموع يجعل المتلقَّى صنيعه: طينته وعجينته!

ولعل أسماء الكتب التي نوّهت إليها سابقاً، تفيدنا في تتبع خيوط اللعبة وكيف تشكلت وتأرشفت!

ربما، وفق هذا التصور، يمكننا التقدم خطوة إلى الأمام، أي ما يجعلنا في الحقل المطلوب، أي كتابة الرحالة، وكيف يكون التعامل مع الكورد عموماً، أو الكوردي كتمثيل قيمي هنا. وحين أشير إلى الكورد أحياناً، وإلى الكوردي أحياناً أخرى، فلأن ثمة ربطاً بينهما، لحظة التركيز عليهم، من خلال الصيغة الأكثر تداولاً، وما في ذلك من إشكالية التسمية «الأكراد».

ماذا يقول لنا الرحالة العربي ابن جبير «1145- 1217 م» ؟ ربما كان الذي يضمّن فكرة لصوصية الكورد«الأكراد»، وشقاوتهم، يتطلب المزيد من المقاربة النقدية، وهو الذي كان حديث العهد بالأيوبيين ودورهم التاريخي والإسلامي، أو لأنه يمارس فصلاً فيما بينهم، غير أن الذي يشدّد على موقف محدد هو أبعد من ذلك، وذلك عند محاولته الخروج من نصيبين، وما كان يتهيأ له (فتمادى سيرنا إلى أول الظهر، ونحن على أهبة وحذر من إغارة الأكراد، الذين هم آفة هذه الجهات من

الموصل إلى نصيبين إلى مدينة دنيصر، يقطعون السبيل ويسعون فساداً في الأرض، وسكناهم في جبال منيعة على قرب من هذه البلاد المذكورة، ولم يعن الله سلاطينها على قمعهم وكف عاديتهم، فهم ربما وصلوا في بعض الأحيان إلى باب نصيبين، ولا دافع لهم ولا مانع إلا الله عز وجل)[1].

لا أعتقد أن الرحالة العربي، قبل الإسلامي طبعاً ولو في زمانه: ابن جبير كان بعيداً عن الاطلاع على حقيقة تواجد الكورد، بقدر ما تعلمنا سرديته هذه عن أنه على علم بتواجدهم في المنطقة، ليس على تخوم نصيبين، وإنما أبعد منها، أي إنهم بطريقته أبان عن واقعة وجود الكورد في عموم المنطقة، وأن المسافة الفاصلة بين نصيبين وما يليها شرقاً باتجاه الموصل، أو في الطريق إلى بغداد، يصعب قطرها دون حساب نفوذ الكورد، حيث تكون الطرق الوعرة، ومباغتاتها وخصوصاً

---

(1) رحلة ابن جبير«أبو الحسي محمد بن أحمد»، ضبطه ووضع فهارسه : د. محمد زينهم، دار المعارف، القاهرة، ص 196 .

نلاحظ بعده بقرابة ثمانية قرون، من يأتي على الاسشهاد به دون أي إشارة إلى هذه اللازمة العقائدية، أو الموقف المغاير في العلاقة، كما في حال عبدالقادر عياش، والذي عاش بين عامي «1911–1974»، ومن دير الزور: المحافظة السورية المعروفة ذا الإرث البداواتي، في كتابه: حضارة وادي الفرات «مدن فراتية»: القسم السوري ، إعداد: وليد مشوح، دار الأهالي، دمشق، دمشق، ط2، 1999، حيث يؤرّخ لنصيبين، كما لو أنها داخلة في نطاق الجغرافيا السورية بالمفهوم السياسي (ولقد تعرضت نصيبين ومدارسها وأديرتها لكوارث الحروب الكثيرةالتي تتابع وقوعها بين الروم والفرس.ص218... وما يخص الموقف من الكورد: وخرب الأكراد نصيبين بكثرة غاراتهم عليها..ص226... وقبلها يشير إلى ابن جبير وإعجابه به، وذمه للأكراد فيها .ص 223 ...الخ)، ليكون أكثر من كونه ناقلاً خبرياً .

قبل الكورد الذين ينتمون إلى المكان، أي كونهم من سكانه الإصلانيين، وهم في ظهورهم واختفائهم، يتعاملون مع سلطة لا تقيم لهم ذلك الاعتبار الذي يشعرهم بمكانتهم، أي بسلطتهم في المنطقة، والاعتراف بموقعهم التاريخي [1].

(1) كأن نقرأ في رحلة سبستياني: الأب جوزيبه دي سانتا ماريا الكرملي إلى العراق سنة 1666، ترجمة الأب الدكتور، بطراس حداد، الدار العربية للموسوعات، بيروت،ط1، 2006. «توفي سنة1623- 1689»، قوله عن أن (المسافة الفاصلة بين نصيبين والموصل ينتشر فيها الأكراد ولهم أعمال شقاوة. ص85.) .

وكمثال حي، حديث العهد والتكوين نسبياً، هو التشديد الذي يمارَس على من يتعرض لتاريخ الكورد في المنطقة، من خلال الدراسات الجامعية، أي في الدول العربية المعنية مباشرة بكوردستان والكورد، إلى درجة إخضاع أي كوردي لرقابة مضافة، أكثر من «زميله» الجامعي، للسبب الآنف الذكر، إدراكاً من القيّمين على الجامعة، وباعتبارهم «موظفين» بالوكالة، وفي موقع «العين» على كل ما له صلة بهذا الجانب، أشير إلى ما ورد في كتاب أ د. أحمد ناجي الغريري: الأستاذ الدكتور محسن محمد حسين«حياته، آثاره، منهجه في كتابة التاريخ، دار الضياء، النجف الأشرف، ط1، 2011، فهناك أكثر من شاهد على تضييق الخناق هذا، والدكتور محسن من مواليد «1941 ؟»، من خلال مجابهات داخل الجامعة وخارجها في بغداد، وينظَر ، في صص 20–27 ، والغريري السالف ذكره عربي. وكذلك في مثال الدكتور عبدالفتاح بوتاني، أستاذ التاريخ بالمقابل، في أكثر من موقف «في الموصل تحديداً»، كما يعلمنا بذلك في تقديمه لكتابه: الحياة الحزبية في الموصل 1926–1958،مطبعة وزارة التربية، أربيل، 2003، والكتاب في الأصل: رسالة ماجستير قدمت إلى مجلس كلية الآداب/جامعة الموصل سنة 1990 بإشراف الدكتور ابراهيم خليل أحمد ونالت درجة الامتياز، وقد أجريت عليها بعض التعديلات الضرورية خدمة للموضوعية والحقيقة التاريخية، كما وأضيفت إليها معلومات وآراء واستنتاجات لم يكن مسموح بها او حتى ذكرها ، بسبب التطويق الفكري والسياسي القاسي المفروض حينذاك ، فضلاً عن معلومات جديدة لم تكن متوفرة أيضاً ..الخ، ص 18..الخ.

من جهة ثانية، سواء بالنسبة للكرد، أو العرب أنفسهم، وخلافهم، كان اعتراض طرق القوافل وذلك تحركات الأشخاص: الرحالة وغيرهم، وهي محفوفة بالمخاطر، في مقام مورد رزق لأولئك الذين يتربصون بها أو بهم، وهم، من حيث القوة، يمتلكون خبرة في إدارة أمورهم، ومن ثم على وعي دقيق بسير القافلة هذه أو تلك، أو من يخرج من هذه المدينة أو تلك، وسواها، لأن ثمة عملاً يومياً أو دورياً للجماعة التي تتولى وظيفة الرصد والتربص والإغارة كذلك.

وما يعمّق هذا الاتجاه من ناحية اللصوصية، وما تكونه في الواقع، هو أن «الغزو» كما يعرفه العرب، مثلاً، قديماً، لا يعدو فعلاً من أفعال اللصوصية المتداولة، مع فارق أن الغزو استعداد لشن حرب، بغية التمكن من جهة، قبيلة معينة، أو اعتراض طريق قافلة، أما اللصوصية، فهي متاخمة لعملية الغزو، رغم أنها ذات خاصية مباغتَة، وهي تظهر فجأة وتختفي فجأة .

ذلك ما يمكن التعرف إليه، فيما يأتي الألماني ماكس اوبنهايم «1860–1946» على ذكره (ممارسة السلب علناً واحترافه يعتبره كل بدوي حقاً طبيعياً له..... ينبغي على الشيخ الذي يحرص على سمعته القيام بغزوة أو غزوات كبيرة كل عام تدوم الواحدة منها في كثير من الأحيان أسابيع أو ربما أشهر.. ص126– يحرص البدو على المحافظة على حياة خصومهم ولذلك يحاولون التسلل إلى مقربة العدو من أجل مباغتته)[1] .

(1) اوبنهايم، ماكس فون: من البحر المتوسط إلى الخليج «العراق والخليج»، ترجمة : محمود كبيبو، مراجعة وتقديم: ماجد شبّر، الوراق، لندن، ط1، 2009، الطبعة الألمانية الأولى برلين1900 ، ص 124– 126 .

اوبنهايم الآثاري والرحالة والسياسي والاستخباراتي الألماني، والذي سنتوقف عنده مطولاً، في المقبوس الآنف الذكر، يضفي اعباراً تاريخياً على واقعة: النهب والسلب واللصوصية أيضاً، أما بالنسبة للكرد «الأكراد» الذين تحدث عنهم ابن جبير، ففي ذلك «خلاف المقصود»، أي ما يجنح بهم إلى الضعة وانعدام الأخلاق، أي بوصفهم مجردين من الضبط الاجتماعي، ولا بد أن تخريجاً اعتبارياً من هذا القبيل، ينطوي على أكثر من توليفة قيمية واجتماعية لهم .

أي ما يخص علاقة الأنا بالآخر، وما تكون عليه «ملَكة الأنا» من حيازة أنانية، أو انغلاق على دائرتها الأقوامية، ومن ثم التحصن بالدين، وإنزال «العقاب» الأخلاقي، ومن ثم الدعوة إلى محاربة هؤلاء، لا بل واجتثاثهم من أصولهم، وهو تعبير يقودنا إلى مقدار الضغط عليه، وعلى الذين كانوا يتنقلون في المنطقة، كما لو أنه يمتلك رغبة في استباحتها، أو التحرك بملء رغبته، واعتبار كل عائق سلبي المقام، إلى جانب تعزيز ما يعنيه ومن ينتسب إليهم قيمياً «العرب»، وتجريد من يعتبرهم الأبعد مما يمكن تقبلهم من منظور المغايرة، من موقع تعظيم الذات.

أي إن الذي يمكن التشديد عليه هو أن ابن جبير عالم بالمنطقة، ويعرف الكورد جيداً، سوى أن الموقف من الكورد ينبني على قاعدة من الخصومة الأبعد من كونها «عصبية»، بقدْر ما ترتقي إلى مقام المجابهة مع الآخر الذي يجد نفسه الآخر للذين يطالبه في أن يكون المعرَّف به بلغته، أي بلسانه الثقافي والاجتماعي، أي في أن يكون الداخل في ذمته، ودون ذلك، كيف يمكن تحرّي خطوط النزاعات القائمة بين الكورد والآخرين، وخصوصاً بالنسبة للعرب الذين يضفون على اللغة التي يتحدثون بها صفة كونية، يطالَب الآخرون في أن يتقنوها، إنما، على

وجه التحديد، أن يصبحوا في مضمار التبعية للناطقين بها في الأصل، وبناء عليه، يكون المكان ذاته متنازَعاً عليه، بقدر ما يكون حمّال مخاطر ومخاوف، أو منطقة توترات تسمّي الكورد فيها قبل سواهم.

ولا أدري إلى أي درجة يمكن المضي بهذا القول، وهو أن الذهنية التي ترتد إلى مرجعية لها صفة بداواتية، تعرَف بميزة لافتة، وهي معاداة ما عداها، فيكون طريدته، ومغنَمه ، وهذا يحدد المقصد بمفهوم «العرب»، أي يقتصر المعنى على الذين يصادرون على الآخرين تمايزهم.

إن ما يحفّز على قول المزيد في هذا المسار، هو أن ثمة سلطة لديها منظومة قيمية كاملة وفقاً على توجهاتها في النظرة إلى العالم، حيث يكون الناس أمماً وشعوباً وقبائل، إنما وهم بشر، ليس في مقدور أي منهم التعالي على ما عداه،على الصعيد المورفولوجي أو البنية الجسدية، ومن ثم إخضاعهم لتقييمات تخرجهم من هذه الدائرة المفهومية اللاغية للتمايز المتعالي بمركزيته، وأن هذه السلطة بقاطرتها العصبية الطابع، مهما شُدّد على تجوهرها الديني العام، هي التي تمثّل أكثر من واسطة عقد لهذا التصور، وتحديداً في التعامل مع الساعين إلى الاختلاف.

إن باحثاً عربياً معاصراً، هو نفسه من يصرّح بمفارقة ساخنة كهذه، بقوله عن (أن الانتماء إلى ثقافة الفاتح أو الحاكم قي جعل – في أغلب ظننا – الأساس الديني/ العرقي/الحضاري، معياراً لوصف أغلب الأشياء، في إطار مقولة التزيين والتقبيح، وفي الحكم على السلوكيات)[1].

(1) فهيم، د . حسين محمد : أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يناير، 1989، ص 174.

وربما لا يكون ابن جبير وحده، كما تقدَّم، هو من أبان عن الحراك العصبي والمعتقدي الموجَّه، وإنما ما يؤسس لشراكات مذهبية وجوهرانية لمّاحة، يكون فيها الشرقي والغربي، لينتفي ما هو جغرافي في ضيق في بنية التعالق مع الغير، فالمصلحة هي القاسم المشترك الأعظم.

كما في رؤية شذاذ الآفاق الإيطالي البندقي ماركو بولو«1254-1324 م»، والذي جاء عقب ابن جبير، الذي جاء بدوره إثر سلسلة الرحالة العرب والمسلمين قبل ذلك، ممن حاولوا مسح بقاع الأرض التي بلغوها أو تناهت إليهم بأسمائها، أو توغلوا فيها، أو ترجموها إلى اللغة التي شهد لها التاريخ طويلاً بالقوة الضاربة في الجهات «الضاد»، وهذا من شأنه تعزيز الفكرة التي تقول بما يخرج المرء عن رهان العقيدة بمعناها الضيق، وإبراز التشارك على صعيد القيمة التاريخية الموحدة في تقييم الآخرين، ممن ينظَر إليهم كما لو أنهم يمثّلون «الشر المحض».

من الناحية الجغرافية نقرأ في مدونة رحلته (وتتاخم أرمينيا من الجنوب الغربي منطقتا الموصل وماردين.. ص52... وما يخص الموصل: الموصل ولاية ضخمة، تسكنها أخلاط شتى من الشعوب لها أوصافها المختلفة، وتؤمن طائفة منها بالنبي محمد وتسمى العرب.. ويسكن الأجزاء الجبلية جنس من الناس يُسمى بالأكراد، بعضهم مسيحيون من النساطرة أو اليعاقبة، وبعضهم الآخر من المسلمين. وجميعهم قوم لا

ويشار إلى أن المؤلف سابقاً، ولاحقاً، لا ينسى أن يشدد على مقولة «الذهنية العربية» في حديثه عن الرحلات التي تمت خصوصاً بدءاً من القرن الثالث/ التاسع الميلادي حتى الوقت الحالي «ص95»، وكان يفترَض على الأقل، ومن منظور ابستمي «علمي» اعتماد مفهوم «الذهنية العربية- الإسلامية»، جهة الارتباط بالسلطة ونوعيتها .

مبدأ لهم، صناعتهم سلب لتجار.. ص57... وأما عن مدينة «توريس: تبريز» فنقرأ: والسكان المسلمون قوم اتصفوا بالخيانة والغدر والتجرد من المبادىء. وهم يعتقدون أن ملتهم ترى «كذا!.» إن كل ما سرق أو نهب من أبناء الديانات الأخرى، فهو أخذ حلال، وأن السرقة ليست جريمة، بينما يعد كل من لقى مصرعه على يد النصارى شهيداً. ص 65 ... وبالنسبة لمسح جغرافي يقع في نطاق رحلته، أو ما يبدو أن الوضع كذلك، بصدد ممالك فرس: أولى الممالك هي قزوين، الثانية، وتقع إلى الجنوب «الغرب» فهي كوردستان، والثالثة هي لور.ص69... وحين ننتقل إلى واضع الهوامش هنري كورديار، نقرأ ما يعيدنا إلى ما سبق وأن قرأناه في: الهامش ه، ص 196: إن كوردستان، التي كانت تؤلف الجزء الشمالي من بلاد آشور القديمة، منطقة جبلية تقع إلى الشرق من نهر دجلة وراء أقاليم الموصل ونصيبين وماردين مباشرة وتتكلم أغلبية السكان بلهجة فارسية محرفة، وإن ماثلوا في عاداتهم وأحوالهم البدو الأعراب، كما يشبهونهم في ممارسة سلب القوافل التي ليست لها حراسة كافية، وينعتهم كارترايت بأنهم «شعب لص سراق إلى أقصى حد»، وتتفق جميع بيانات كل من أعبه من الرحالة في وصفهم بأنهم نهابون محترفون، وهو وضع لمجتمعهم ينجم عن موقعهم المحلي، وذلك نظراً لأنه منطقة جبلية لا بد للرحالة بالضرورة من اختراقها في عبورهم من إقليم غني إلى آخر..)[1].

(1) رحلات ماركوبولو، ترجمها إلى الانجليزية: وليم مارسدن- ترجمها إلى العربية: عبدالعزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2،1995. ماركو بولو الإيطالي البندقي «1254- 1324»، هوامش مارسدن.ج1، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

أي غرابة في تسيير هذه العلاقة، ومن ثم تجسير الفجوة المعتقدية بين رحالتين ينتميان إلى جهتين جغرافيتين، إنما الأهم أيضاً إلى إحداثيتين دينيتين غاية في الاختلاف، وفي الفترة تلك؟

كيف يتناغم تصوّر القريب العهد جداً بحرب الإسلامي قبل الكوردي: صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين، وتصور الملسوع باسم هذا «البطل» المسلم، وليس الكوردي إجمالاً، جرّاء إجهازه على اسطورة رموزه ممن اتحدوا معاً وغزوا «الشرق» تحت راية دينية وهي حروب الفترة تلك؟

ثمة مفارقات متسلسلة في بنية مدونة كل منهما، بحيث إن الذي تعرَّض له بولو، رغم موقفه البادي العداء للكرد، يعرّف به أخف وطأة، وهو يأتي على ذكر كوردستان.

أما من حيث الجمع بينهما، فلعل الذي يهم الرحالة هو النظر في طرق المواصلات، أو شبكة الطرق التي تربط ما بين أمصار الدولة الواحدة بالمفهوم السياسي، ولا بد أن الرحالة حين يصف أحوال الطرق بالسلب أو الإيجاب، فإنما يذكر الجهة أو أكثر، ومن يشكلون عقبة هنا، سوى أن الرحالة، وكما سنرى، قد يندفع متجاوباً مع عاطفة ذاتية وفكرة مسبقة في إظهار ذلك الخطر المتمثّل في سمّاهم «الأكراد»، وكلما زيد في النعت سلبياً، أفصح الأنا عن ذاتيته.

قبل أربعة قرون ونصف القرن، كانت رحلة الهولندي راوولف إلى الشرق «بدأ الرحلة في 18 من أيار سنة 1573 م»، وهو إذ يأتي على ذكر الكورد فمرونة لافتة، وهو لا يغفل في كتابته البعد السياسي في العلاقة بينهم والسلطان العثماني (وكانت للأكراد سياستهم وحكومتهم، ولكن بعد تبدلات وحروب كثيرة أخضعوا في النهاية لحكم السلطان

العثماني...وفي طريق نصيبين: من كانوا يتجسسون عليهم ليعرفوا قوتهم..)[1].

ثمة ضرورة تاريخية ومنهجية للتفريق بين التوصيف السياسي، والتوصيف البيئيي، وما يترتب على كل منهما من تعبير له صلة بالنقد الاجتماعي، والتقييم الأخلاقي بالمقابل.

فتبعاً لما يقوله جيمس بيلي فريزر«1783–1856»، في رحلته، نتلمس ربطاً بالبيئة، أو بالوسط الاجتماعي، ونقلاً عن دكتور يعرفه، وهو أجنبي، إذ يقول ما ينشّط فينا التفكير في مسار أكثر تهدئة (إن طبيعة الكوردي مجبولة على الحرب.)[2].

إذ رغم أن هناك ثغرة تتطلب سداً لها، أي بخصوص هذه الجبلّة المسماة، فإن ذلك متروك لنباهة الباحث في التاريخ، أو من لهم باع في المضمار الثقافي، وموقع الحرب في هذا الجانب.

أن يكون هناك استعداد للحرب، أو لزوم الانخراط في الحرب، ففي ذلك ما يفلت النظر إلى وسط طبيعي لا يعرف الاسقرار، كما في المحيط الجغرافي الكوردستاني، والخاصية التضاريسية أو الجبلية، حتى على صعيد التواصل بين الكورد أنفسهم، إلى جانب الاجتياحات المألوفة في التاريخ، ومن قبل أعداء غزاة قدموا من وراء مسافات بعيدة، وتنوعهم، وحاجة هذه المستجدات إلى دوام التنبه، وأخذ الحيطة

(1) الرحالة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف: رحلة المشرق، ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والفنون، دار الحرية، بغداد، 1978، ص 197– 207.

(2) جيمس بيلي فريزر، في: رحلته إلى بغداد سنة 1834، ترجمة: جعفر الخياط، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2006، ص 22 .

واليقظة، كما لو أن التعريف بعلامة الحرب المفارقة في مقام توجيه رسالة إلى «يهمه الأمر»، ولعل من بداهات القول أن لا أحد يرغب في الحرب، إن لم تكن الحرب وضعاً مفروضاً، وأنها بالطريقة هذه، تتطلب المزيد من المجابهة أو الجاهزية لها.

بالطريقة هذه لا تكون الحرب مقبولة، أو يُنتمى إليها كخيار كينوني، أو وجودي، وإنما لردع قائمة القوى التي تهدد هؤلاء المنخرطين في لعبة الحرب، وضمن ظروف معينة.

ولعل الكورد في اعتبارهم متحمسين للحرب، أو يقبلون على خوضها، يجسّدون خاصية ذات طابع دفاعي، في الوقت الذي يجدون أنفسهم مجتاحين مع جغرافيتهم، وكأن اعتراضهم للذين يعبرون في منطقتهم، ويفرضون عليهم شروطاً معينة، أو يطالبونهم بدفع فدية معينة، إنما في الواقع، يفصحون عن تمثيل وجداني للأرض التي يتحركون عليها، وليس أن يتم تقليص العلاقة بين هؤلاء الكورد في جانبي الإغارة والسلب، أو الضلوع في الحرب، وكأنهم نذروا أنفسهم لها، إذ إن متابعتهم وقد انتقلوا إلى بيئات مختلفة، لم يعودوا أولئك، تبعاً لمقتضيات الظروف.

وربما ما يضيىء هذه العلاقة، ولو بتوسع في المساحة، ما نوَّهت إليه الرحالتان الانكليزيتان في أوائل القرن الماضي: رولاند ويلكنس، ونحن نقرأ المقبوسات التالية (إن أكبر الأخطار التي تحدق بك في ضواحي المدن التركية الكبيرة، هو الوقوع في الأسر من أجل دفع فدية مقابل لإطلاق سراحك، ليس بسبب وجود قطاع طرق محترفين يجوبون المناطق حولك، ولكن بسبب وجود شريحة من السكان على استعداد لأن يتحولوا إلى قطاع طرق في اللحظة المناسبة التي يجدون

فيها الرياح مواتية لطُعم مناسب. ص 17... وهم في طوروس: ها نحن ندخل موطن الأكراد، النساء الجميلات يجلسن على عتبات البيوت العريضة والتي تشكل سقف البيت الذي أسفله، وهن يطحن الحبوب بمطحنة حجرية أو يخبزن الخبز.ص88... ولاحقاً ثمة عنوان فرعي في الكتاب، جاء هكذا: بلاد ما بين النهرين الأرض غير المباركة. ص109.. ومن ثم يأتي الحديث عن غارات الأكراد على القوافل. ص111... وما ينوّه إلى موقف، إذ يقولون «مَن ؟» عن ديار بكر إن بيوتها سوداء، كلابها سوداء، وقلوب أهلها سوداء أيضاً. وإنها كذلك حقاً كما يقولون.ص 127.. وبعد الوصول إلى قرية حسوني، ما يعمّق هذه العلاقة في بيئة لا تخلو من عنف على خلفية توتراتها بالتأكيد.. ثم: تقاطرت قطعان الأغنام والماعز من جميع الجهات وملأت الأزقة الصغيرة لتتقاسم السكن مع أصحابها لتحتمي من هجمات الأكراد .ص175... الخ)[1].

إن من يتعرض لمكاشفة دلالية لهذه المقبوسات، ربما لا بد أن يتلمس نوعية الثقافة التي باشرت تأثيرها في ذات الرحالة، أو الرحالتين، إذ لا يخلو المثار من مجابهة بين عالمين، وأن العالم الذي خيض فيه ليس هو العالم المأمول، وأن يكون عالم لصوص، فليس لأنهم لصوص، بقدر ما يكون هناك تعريف بالذات على النقيض مما هو متوخى من هؤلاء، وهم يفرضون وجودهم.

وفي البناء المفهومي للعبة الإشارات، كما هو المنصوص آنفاً، يسهل تبيُّن المفارقات وهي في حقيقتها لا تقال عفو الخاطر، إنما من منطلق

(1) رولاند ويلكنس: الطريق إلى بغداد، ترجمة: مؤيد عبدالستار، دار الحكمة، لندن، ط1، 2003، وقد وردت أرقام الصفحات في المتن للإيجاز .

رؤية عالم الآخر، أو الآخر وعالمه، حيث إن مقولة «الغريب» قائمة وفاعلة بأثرها هنا، بقدر ما يكون الرحالة وهو يحيل الآخر هذا إلى مجرى سلطوي بالوكالة، يتعدى حدود الوصف، ويتلبسه «السياسي» في زمانه، وبقدر ما يكون هناك أساس عرقي يلعب دوره في بلورة الصفة الاعتبارية النابذة للآخر.

لا علينا أن نمضي إلى الأمام، ونتلمس امتداداً لهذه الرؤية للكوردي، ولو من الزاوية السياسية الأكثر سفوراً، ومن قبل سكرتيرة المكتب السامي البريطاني في العراق في فترة الاحتلال الانكليزي للعراق هذا، المس غيرترود بيل «1868–1924»، حين تأتي على وصف الشيخ محمود، الوصف الذي يمنحها طابعاً زمالاتياً مع الآخر: ابن جبير، كما يبدو، بقولها (إن منزلة الشيخ محمود تستند في الدرجة الأولى، فضلاً، عن نفوذه الديني، على الرعب الذي كان قد فرضه على الناس قبل الحرب وعلى القتل الجماعي والسلب اللذين كانا يجريان باسمه.)[1].

---

(1) بيل، المس غيرترود: فصول من تاريخ العراق القريب «كتاب يبحث عن العراق في عهد الاحتلال البريطاني بين سنتي 1914–1920، ترجمة: جعفر الخياط، دار الكتب، بيروت، د.ت، ص 187 .

قريب من ذلك ما يأتي على ذكره الباحث الفلسطيني الأصل حنا بطاطو، في موسّعته: العراق «الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية»، ترجمة: عفيف الرزاز، منشورات فرصاد، قم، إيران، ط1، 2005، وفي الكتاب الأول، بقوله (ويبدو أن العنف يقدم أيضاً تفسيراً جزئياً لنفوذ آل حفيد البرزنجي، وهي عائلة «السادة» القائدة في السليمانية، وكانت في العام 1958 تملك 71716 دونماً. ص 195. وكان والد الشيخ محمود، الشيخ سعيد، مصدر رعب السليمانية..ص 195..) .

وذلك ما نتلمسه بالمفهوم السلبي في كتاب الضابط الأمني السوري، رئيس شعبة الأمن السياسي في محافظة الحسكة، وعضو في حزب البعث العربي

هنا يكون الشيخ محمود في معرض التقييم السياسي، أو بما يتجاوب مع النظرة السلطوية: الانكليزية، وهي بطابعها السياسي الاستعماري بجلاء، نظرة تعزل الموصوف عن القيمة الأخرى التي يعرَف بها في بيئته، أو وسطه الكوردي، وموقفه من السلطة، ومن يمثلها، وكون العزل، بالمفهوم السياسي لا يعدو أن يكون إخراجاً له إلى المضمار المحدود المؤطَّر سلطوياً، ولا بد أن يكون السلب والنهب من بين أولى العلامات النابذة له، بغية محاربته بالتأكيد .

وفي عِداد الدفع بالآخر، وهو الغريب، والمشبوه، أو المشكوك في أمره، يكون إعداد القائم بعملية «الإغارة» التعبيرية، لحظة تطويع المكان في خدمة الثقافة التي تؤدي مهمتها، ربما، على أكمل وجه، لحظة «تأثيم» الموصوف بما يحفّز على «تأديبه» أو القضاء عليه واقعاً .

وسواء كانت «**الذهنية العربية**» هي التي أفصحت عن نفسها بالقدر الذي تؤكد فيها نجاحها العملي في تمثيل ثقافة «الفاتح الحاكم»، أو رجل مغامرات لا يخفي انتماءه إلى ثقافة سلطة أخرى، ولكنها تتداخل مع السلطة التي يرتبط بها رجل سابق وقبله، هو ابن جبير، أو امرأة «حديدية»، أو آنسة صعبة المراس، لها صلة مباشرة بثقافة سلطة

الاشتراكي فترة حكومة الانفصال محمد طلب هلال «ملازم أول» في كتابه: دراسة عن محافظة الجزيرة من النواحي القومية والاجتماعية والسياسية «وثيقة»، منشورات كاوا، بيروت، ط1، 2001، كما في قوله عن عشيرة الهفيركان (عشيرة الهفيركان الكوردية: لقد تمرست هذه العشيرة في أعمال الشقاوة وقطع الطريق على مر تاريخها .. ص 39)، فالشقاوة جامعة مثالب هنا بامتياز .

ذلك ما يستدعي القيام بجردة تأريخية ميدانية لحقيقة المثار، وعبر مصادر مختلفة .

امبريالية الطابع، في كل هذه لا تكون السلطة بالمفهوم السياسي إلا ذاتها من جهة التحكم بالعالم الذي تدير شئونه، أو التعبير عن طغيان نفوذها، وحتى فتنتها اللاشعورية في تسيير أو تلوين رغبات من ينتمي إليها، ولا يتردد في تجريم أو تغريم المخالف، والعقوبة بالتالي تتحدد تبعاً لنوعية الجرم المقرَّر، وبمعمنى آخر، حين يصار إلى الزج بهذا «المغضوب عليه» إلى تلبيسه خاصية «الشرير» لردعه !

وتجنباً للتعميم، وبغية التعرف إلى هذا الجاري وصفه، فإن هناك من يقدّم صورة أخرى، وهي من حيث المحفّز القيمي تشكّل زاوية أخرى للنظر، إلى جانب موقف أو ظرف زمكاني، وهذا ما يرتّب على لزوم أخذ أي مقولة باعتبارها مطلقة، إنما ذا طابع تأطيري.

فها هو رحالة فرنسي وقبل قرن وثلثه، يشير إلى نوعية مغايرة في التعامل، ولو أن ذلك يتم في جهة أخرى، أي ما يبقينا هنا في الجانب المكاني وخاصيته الدلالية (في المنطقة المحيطة بالزاب: يستقبلنا الأهالي استقبالاً حسناً، والفضل لأصحاب البغال الذين رغم كونهم كُرداً، فهم طيبون وحسنو التعامل، على العكس من الآخرين، فقد كانوا قساة ومتوحشين..)[1].

ومن اللافت أن تعابير من مثل «طيب، قاسي، حسن، قبيح، لطيف، شرير...»، هي من بين التعابير المعتمدة في أدبيات الرحلة، كونها تعبّر

(1) بنديه، هنري: رحلة إلى كوردستان في بلاد ما بين النهرين سنة 1885، ترجمة وتعليقات د. يوسف حبي، دار آراس، أربيل، ط1، 2001، ص22، ويشار إلى أن رحلته كانت بتوجيه من وزارة التربية الفرنسية، ولمهمة جغرافية آثارية..ص8، وهو ما يربطها بهدف، وليس لأن هناك رغبة شخصية في القيام بهذه الرحلة، أي إن ثمة تقريراً يُنتظَر قديمه إلى حكومته.

عما هو مطلوب، من الناحية التقييمية، وفي الوقت الذي يجب أن تراعى جملة التعابير ذات الوصفة القيمية، في حيّزها المكاني، وما هو عليه الكاتب ورحالته، إلى جانب ثقافته وعقيدته بالمقابل، وفي الوقت الذي يلعب الاختلاف المكاني، أو اللغة دوراً اعتبارياً في سياسة التعامل مع المعتبَر الآخر وهو الكوردي هنا، وما يُراد منه !

هذا يعني لزوم النظر في التفاوتات القائمة بين رحالة وآخر، وما يتميز كل منهما من ثقافة معينة تسمح بتشكيل زاوية الاختلاف هذه، وأخذ كل ذلك بعين الاعتبار.

وعلى سبيل المثال، فإن عقيد الجيش الامبراطوري ، آمر مزرعة تربية الخيول في بابولنا «المجر»، وهو ميهاي فضل الله الحداد « 1841– 1924، والذي قام برحلته في عامي « 1901– 1902»، يعطي صورة لها ميزتها في الموقف من الكورد جهة الثقة (هناك الضابطية الذين يرافقون القوافل أو الزوار الأوروبيين، يعطى للضابط مجيدي واحد يومياً عادة، وللشرطي نصف ذلك.. وغالباً ما يكون الضابطية من الأكراد أو الأناضوليين لأن الحكام لا يستخدمون العرب للخدمة في الشرطة لأنهم لا يثقون بهم. في ولاية بغداد هناك 600 من هؤلاء الضابطية وهم يستخدمون البغال بدلاً من الخيل.) [1].

هذا القول يجب ألا يوجَّه معمَّماً صوب حكْم يطلَق على العرب كما ذكرهم، إنما يوضع الكلام في موضعه، وحتى على مستوى الشخصية الناطقة، فإنها تكون قابلة للمساءلة، من ناحية العرض لبية الكتابة

(1) الحداد، ميهاي فضل الله: رحلتي إلى بلاد الرافدين وعراق العرب، ترجمة: ثائر صالح، منشورات كتب، بيروت، ط1، 2004. الكتاب طبِع بالهنغارية سنة 1904، ص 24 .

الخاصة بها، وصلاتها مع محيطها الاجتماعي، وما إذا كان هناك ما يشبه «الرضة» النفسية الي لها دور في فعل تشخيصي كهذا، وأعني بذلك أن ما يتردد حول جماعة ما في السلب أو الإيجاب المطلق لا بد أن يبعث على الشك في الحال، لصدوره عن موقف مسبق.

ذلك ما ينطبق على العلاقات القائمة وبنية العمل وصفته ومحيطه بالمقابل، وقبل ثلاثة قرون وقرابة نصف القرن، ومن رحالة فرنسي هذه المرة، وإنما في مسار آخر (والأرض بين قوش حصار ونصيبين سهل فسيح، لا تجد فيه عشباً خلال الأيام الأولى من السفر، ما سوى كزبرة الثعلب..ص55- ونصيبين الحالية ليست إلا ظلاً لنصيبين القديمة، وهي اليوم عبارة عن قرية كبيرة يسكنها النصارى من الأرمن والنساطرة. ... وفي مكان آخر: عند بلوغ الموصل: وليس لهذه البقعة من شأن إلا كونها ملتقى مهم للتجار خاصة تجار العرب والكورد الذين يقطنون بلاد أشور القديمة، المسماة اليوم بكوردستان) [1] .

يمكن لنا أن نتوقف عند طبيعة الكتابة عنده هو الآخر، وكيفية صوغ جملته، وخلفيته الثقافية، إنما في العمق: عدم نسيان الفترة الزمنية التي عاش فيها، وتلك الصراعات التي كانت فاعلة في أثرها على المستوى الديني، الاجتماعي والاقتصادي، وتلك الإشارة إلى المنخرطين في مهنة التجارة وفي «الموصل»، والحديث عن «كوردستان»، ولو بصيغة مخفَّفة، إلا أن ذلك يسمح لنا في أن نتوسع في الحوار أو

(1) العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنييه، نقله إلى العربية، وعلق عليه، ووضع ملاحقه: بشير فرنسيس- - كوركيس عواد مطبعة المعارف، بغداد، 1944.
الطبعة الأولى بالفرنسية، سنة 1676.ص3 والمؤلف/الرحالة الفرنسي جان بابتيست تافرنييه، عاش بين عامي «1605-1689» ص 54- 59 .

المناقشة، والهدف، هو كيفية تنوير التاريخ الذي يعنينا من جهة، إنما كيفية التعرف إلى سرديات اللص التاريخي، وما إذا كان الكوردي وحده مميَّزاً به، أو يكونه أو أن الصفة تعتمَد في وضعية معينة، وفي سياقات اجتماعية وثقافية وسياسية معينة كذلك، من جهة ثانية، فلا يعود هنا مجرد لص نمطي، يؤلَّف عليه الآخرون، أو يشدَّد عليه، أو أكثر من لص بالذات، وما إذا كان في مقدورنا- حتى – اقتفاء- أثر اللصوصية في التاريخ العام، وفي المنطقة بصورة خاصة، وكيفية تلبيس الكوردي بها، وأبعادها التاريخية، وتنوع مقاماتها كذلك، إذ إن من المستحيل البحث في سياق ثقافي، أو اجتماعي، وعلى مستوى السلطة، في أي حقبة زمنية، وعند أي شعب كان، دون وجود من يشكّلون مجموعات لصوصية غير ثابتة، إنما ذات صلة بالمستجدات والأحداث، لكن تصريف اللصوصية في منحى أخلاقي وربطه بجماعة بشرية أو أكثر، ففي ذلك الكثير من التجنّي، خصوصاً إذا كان الذين يذمّون بها سواهم، هم أنفسهم من المعتدين بهذه «الخصلة»، ولو تحت بند آخر، أو صفة أخرى في إطار الغزو.

إزاء ذلك، تُرى، كيف ينظَر إلى مفهوم «الغزاة» إذاً ؟ أم أن هناك غزواً وغزواً ثم غزواً ؟

ذلك ما يُرينا لعبة المفارقات ومخاتلات الذهنية التي تتراءى سوية وهي خلافها داخلاً، أي ما يجب التنبه إليه، في أي عملية مقاربة نقدية للآخر، وتحديداً في المنحى الأخلاقي طبعاً !

ملحق مؤثّر في مضمار اللصوصية وكيفية تقييمها

أتوقف في هذا الفصل عند مثال حي، يتردد من خلال اسم لافت في منطقة «الجزيرة»، وهذا المثال يتعلق بالرحالة الانكليزي: جيمس

سلك بكنغهام «1786–1855»، كان يعمل في شركة الهند الشرقية، وكثير التطواف والترحال، ولعله في رحلته كان يقدّم ما يضيء دائرة علاقاته بحكومته، بقدر ما تنطوي رحلته على قدْر واف من المعلومات المتعلقة بالمنطقة، وهي بالصيغة هذه تصلنا بمن أتينا على ذكرهم، من جهة، وتقدّم لنا فرصة لها جاذبيتها بدراستها من جهة أخرى، والمقصد، هو إلى أي مدى كان الذي أورده من معلومات في رحلته دقيقاً ؟

لا بد من إيراد جملة من المقبوسات ذات العلاقة ببحثنا و من محاولة إضاءتها، أي السعي إلى الحفر في البنية الذهنية للرحالة السياسي، والمتميز برؤية ثقافية إلى موضوعه:

(ثمة ما يرد بخصوص المواقع الجغرافية وهي تمثّل مدناً، إلى جانب رقَع أو مساحات أرضية تفصل ما بينها، وذلك في الفصل الأول: من نصيبين عبر سهل سنجار: بعد أن سرنا ساعتين وصلنا إلى قرية على رابية مشرفة تدعى «تل الشعير»، وكانت المنازل القليلة الظاهرة فيها أشبه بمخازن الغلال المستطيلة الشكل في المزارع الانكليزية، وهي مغطاة بسقوف منحدرة من القش. أما السكان، وكلهم من الأكراد، فكانوا يسكنون بصفة رئيسة ولذلك كانت معظم هذه المنازل غير مأهولة ولربما كانت الأبنية خاصة بخزن الحبوب على وجه التأكيد. وبعد مسيرة ساعتين من تلك القرية، ونحن نتعقب ذات الطريق، مررنا بمكان آخر يدعى «ضيعة خليف آغا» وهو اسم الرئيس الذي يقيم فيها. وتقع هذه القرية أيضاً على رابية أصغر من الأولى وتضم نحو خمسين بيتاً غير أن حوالي مائة خيمة كانت قد نصبت بجوارها .

وفيما بعد يأتي الانتقال إلى رقعة جغرافية أخرى: وقبل الظهيرة تماماً بلغنا قرية أخرى تدعى «دوغر» هي دوكر Dugir : ملاحظة من

ابراهيم محمود» ، أمضينا فيها بقية النهار. وقد لاحظنا أن جميع هذه القرى متشابهة في مظاهرها، ولكل منها جدول ماء قريب يأتي من ناحية الشمال، إضافة إلى وجود آبار لكل منها يتزود منها بالماء حين تجف النهيرات، وتنفد مياه الجداول.

وفيما بعد، يتطرق إلى مشهد موصوف مختلف جهة الطريق ونقطة جغرافية أخرى بلغها مع آخرين، وهي قرية أخرى: وعلى طول الطريق من نصيبين كنا نشاهد على اليمين وعلى اليسار بامتداد البصر، قرى عديدة لكنني لم أعرف أسماءها وقد كانت آخرها وأكبرها قرية تدعى «أزروار» تقع على مرتفع من الأرض أعلى من بقية القرى الأخرى .

وتالياً نكون في إطار مشهد آخر يتضمن واقعة ساخنة تخص البيئة أو خط سير الرحلة: وحين أردنا التوقف عن السير اخترنا لإقامة مخيمنا موقعاً بجوار جدول ماء ينحدر من التلال الشمالية ويسير جنوباً حتى يختلط بمياه نصيبين. وعلى ضفة هذا الجدول قتل أحد أفراد قافلتنا ثعباناً أسود كبيراً يبلغ طوله تسعة أقدام وأعرض جزء منه يبلغ قدماً واحداً..ص7.

وجانب المباغتة: ما كدنا نضرب خيمتنا حتى هبطت علينا من التلال الشمالية جماعة تضم حوالي خمسين فارساً يمتطون خيولاً جميلة وهم مسلحون برماح طويلة. وكانت أردية بعض تلك الخيول ثمينة وفاخرة كما كان بعض البارزين من أولئك الفرسان يرتدون ملابس فخمة.

كان مظهر أولئك الفرسان محترماً في الواقع، ولم يسبق لنا أن شاهدنا أمثالهم في طريقنا. لقد كانوا جميعاً من أتباع «خليف آغا» زعيم جماعة كبيرة من الفرسان في هذه المنطقة. وقد قيل عنه أنه من أقوى الرؤساء الذين يقطنون المناطق الممتدة ما بين «أورفة» والموصل».

كان بين أفراد هذه الجماعة صبيان صغيران لا يزيد عمر الواحد منهما عن عشر سنوات ومع ذلك كانا يمتطيان صهوتي جواديهما بثبات، ويحسنان استعمال رمحيهما، وإطلاق نيران مسدسيهما بمهارة فائقة مثل بقية الفرسان، وكانا يظهران- عند الحاجة- الشيء الكثير من الشجاعة أمام الغرباء.

وكانت مظاهرهم جميلة مثل مظاهر الانكليز ولو أن عيونهم وشعورهم كانت سوداء.. ص8...

«فرض الضريبة عليهم. ص 9»-

وعودة إلى الوراء لإنارة الجاري: ولقد علمنا أن خليف آغا ذلك الرئيس الكبير، ومعظم الرؤساء الصغار بين أولئك الأكراد كانوا من المسلمين، في حين أن القرويين الذين يعيشون في تلك البيوت سواء في السهل أو التلال، كانوا من المسيحيين.

وفي الوقت نفسه، ثمة ما يحفّز على الإيضاح وتقريب الاسم من الأذهان : والشيء المؤكد هو أن ذلك الرئيس يستطيع أن يهيء للقتال تحت رايته عشرين ألف فارس، وأنه يستطيع أن يسيطر على قوة ملحوظة تماماً وإن كان ذلك قد يعتبر من قبيل المبالغة بالنسبة للأرقام المقاربة .ص 11 «ضمناً عن اعتراض القوافل من قبل الأكراد وطلب المال».. ص 11..)[1].

بكنغهام الانكليزي رحالة، ولكن أي نوع من الرحالة؟ لا بد أن الرؤية السياسية تتسّبه إلى خانة الذين أتينا على ذكرهم سالفاً، رغم

(1) جيمس بكنغهام: رحلتي إلى العراق سنة- 1816، ترجمة: سليم طه التكريتي، مطبعة أسعد- بغداد 1968، ج1، وقد وردت أرقام الصفحات في المتن للإيجاز .

أن العالم الذي يعيش فيه، وكذلك الفترة الزمنية مختلفان، سوى أن لدينا هيمنة المؤسسة السياسية وفاعليتها الإيديولوجية، بالنسبة لموقع الطريق، وتلك النقاط الموزعة على جانبيه، وكيف كان التوجه يتم في خط منعرج، وليس مستقيماً: لأن الطبيعة الجغرافية للبيئة ليست مسطحة، أو تسمح بسلوك هذا الاتجاه من ناحية، وكون الأمان المحدود كان يتطلب مثل هذا المسلك، تجنباً للمخاطر، من ناحية ثانية، وتحديداً، إذا نظرنا في موقع مدينة «نصيبين»، وهي في حضن جبل طوروس، وأن السير بمحاوزاة الجبل، ما كان يتم إلا بالتفافات، أو انعطافات معينة، لسلامة الرحلة، ورغم ذلك فإن هناك خطوط تحرك، ليس في مقدور أي جهة مسافرة، أو رحالة الحياد عنها، أي كونها ضرورية، وهذا ما يعرفه المنتشرون على جانبي الطريق ممن يعيشون في المنطقة الواسعة الأرجاء، أي قبل أن ترتَسم الحدود الفاصلة بين تركيا وسوريا، كما في حال برّية ماردين والتي تصل إلى مشارف،حدود سنجار، إلى جانب أن الذين يسلكون الطريق كانوا على بيّنة من وضع من هذا القبيل: أي حيث تكون المنطقة مسكونة، ومن هنا كانت الإشارة إلى الكورد، ومجموعة من القرى الكوردية المتناثرة.

إن القيام بنوع من التفكيك لبنية نص بكنفهام، يمكّننا من التعرف على مكوّناته، فهو يمثّل تغطية ذات منحى أمني- سياسي، وهو اللاعب دور الراوية بالمقابل، غير أن اللافت هو التالي:

أولاً، هو أنه خرج من ناحية الموصل وكان يقصد الموصل وربما بغداد من بعدها، سوى أنه لم يشر إلى جوانب إدارية في تناوله للمنطقة، إنما أشار إلى رجل/ زعيم مقتدر، له هيبته فيها .

ثانياً، لم يفصح بكنغهام عن حقيقة صلات «خليف آغا»، وباسم من كان يفرض الضريبة، إذ إنه في إطار الدولة/ الامبراطورية العثمانية، من الصعب، إن لم يكن مستحيلاً عن رقعة، أي رقعة جغرافية في دائرتها، دون أن تكون هناك تبعية معينة، أو فرض أتاوة أو ضريبة، تدفَع للسلطان العثماني، وهذا يعني أن جامع الضريبة والمسيطر على المنطقة المسماة تابع سلطاني.

ثالثاً، وهو ما يتعلق برواية السماع، وتحديداً فيما يخص عبارة «قيل» (وقد قيل عنه أنه من أقوى الرؤساء الذين يقطنون المناطق الممتدة ما بين «أورفة» والموصل ..)، إذ إن العبارة فيها من الصواب، بقدر ما فيها من الخطأ، ومن جانب آخر، فإن اعتماد صيغ كلامية كهذه، لها أبعاد سياسية، ولإبراز خطره قبل كل شيء، عدا عن الذي أعلمه بهذا النفوذ لا بد أن يكون مقرَّباً من الزعيم الكوردي، أو مطَّلعاً على نشاطه في المنطقة، وهذا ينفي عنه أي استقلالية.

ويندرج في هذا المسار، ما يخص إشارته إلى إمكان جمع قوة عددية «عشرون ألف فارس»، ورغم أنه شكك في القوة العددية هذه إلا أنه تركها للمعني بالموضوع، وأعني بذلك، أنه في ضوء الظروف تلك: زماناً ومكاناً، يستحيل جمع قوة عددية كتلك التي أتى على ذكرها، ويعني ذلك إن عدداً يُذكَر بهذه الصورة، إنما للفت أنظار أولي الأمر السياسي وتدارك الخطر [1].

(1) أجدني، ومن باب التوثيق التاريخي، منبّهاً إلى مقال نشره «كوني ره ش»، في موقع «ولاتي مه» الالكتروني، وتحت تحت عنوان «صفحة من تاريخ سنجق خلف آغا أو برّية خلف آغا «منطقة آشيتا» وبتاريخ «3 شباط 2017»، أضفى على المنطقة صفة الاستقلالية، أي أقرب إلى مفهوم«الإمارة»، إلى جانب تأكيد تلك القوة العددية، دون أي راجعة نقدية، لها صلة بالتأريخ، وقد

انتفى لديه كلياً، إذ بناء على مرجع أتبعَ هذا الـ«سنجق» لديار بكر، وثمة ماردين في الواجهة ؟ وقد كان يحتَّم عليه الإشارة إلى رقم صفحة الكتاب وجزئه، وهو غير موجود.

أعني بذلك، أن المقال الذي نشره الكاتب، كان لأغراض دعوية، وهو لا يعدو أن يكون حديث مجالس عامة «مضافات أيام زمان»، ولا صلة له بالتأريخ عموماً، ولنيل مكانة شعبوية، بناء على سلق بعض المعلومات وتطعيمها بأسماء قرى، لا تشكّل لوحة تاريخية، وتحديداً حين اعتبر أن ما جاء به من معلومات، سيفيد من يعمل في المجال التاريخي، أي بوصفه صدراً تاريخياً» وهو بعيد عن زعم كهذا وخطورة قول هذا تكمن في عدد القراءات اللافت، ومن خلال العنوان/الخطاطة التي تثير ما هو شعبوي لدى العامة وليس الخاصة، وهذا ما يجب التنبه إليه مجدداً.

أي لزوم الربط بين ظهور شخصية كهذه، وكيفية ظهورها، ومن الذي كان وراء رواية هذا الكم الكبير من الفرسان «وقتذاك»، وقد كان تابعاً لابراهيم باشا الملي، تبعية لا يستطيع التحرر منها» ينظَر أيضاً كتاب : عشائر كوردستان ، لابراهيم الداقوقي، وآخرين، منشورات رابطة كاوا، بيروت، ط1، 2002، ص113.

وفي الجانب المغاير، أشير هنا إلى ما نوَّه إليه الباحث الكوردي محمود عباس، وهو من قدماء أهالي المنطقة، ويقيم الآن في الولايات المتحدة الأميركية، فقد أورد حقيقة تاريخية- جغرافية في الجزء الثاني من مذكراته «ومضات من ماضي نصران»، والمنشور في موقع «الحوار المتمدن- 6- 3/ 2016»، نقرأ ما يخص هذه النقطة، مشيراً إلى والده «محمد عباس» الذي (تزوج وهو في سن المراهقة، انتقل بين عدة قرى من قرى العائلة، بنى بيتا في قرية غردوكه، في نهاية الثلاثينيات، فهي كانت من أملاك جده الأكبر، بحسب سندات تمليك صادرة من الأستانة تعود تاريخها إلى قرابة عام 1835م، والوثائق لا تزال موجودة حتى الآن، نشرت إحداها في كتاب مارتن فان براونسين (الأغا والشيخ والدولة.)، وهو تاريخ لا يستهان به- كما أعتقد - ، وهو نفسه من أطلعني عليها وأعلمني بها .

لاحقاً نشر الباحث عباس مجموعة مقالات أخرى مضيئاً هذا الجانب الحساس جداً، بالمزيد من الإشارات التاريخية والتوثيقية، كما في مقاله المنشور في

أي لحظة المقارنة بين طبيعة المنطقة، وإمكان تصديق هذا العدد وقتذاك.

ثمة تلطيف للمفردة ذات الصلة بـ«خليف آغا» بصفته المسيطر على المنطقة، وليس لأنه زعيم سياسي يمكن الاعتداد به، إلى جانب أنه يعمل لنفسه وجماعته «ثمة كرد وثمة مسيحيون طبعاً» أو من يأتمرون بأمره، وتبعاً لتعليمات وإن يفصح عنها، ليبقى اللص التاريخي مستمراً بنظامه المفهومي في مراحل تاريخية متعاقبة، ولا بد أن حمولته القيمية السلبية وراء استمراريته.

إنما ما لا بد من التشديد عليه، هو أن وضْع «لص تاريخي» تحت الأضواء، يترجم نوعية القوة المغايرة لتلك السائدة، أي ما عجزت، أو تعجز السلطة عن احتوائها لمصلحتها، وربما بمثل هذه الرؤية يمكن تبيّن الأرضية التي ينبني عليها مفهوم ويطرَح للتداول هنا وهناك، وفي الوقت الذي تتطلب صورة الأرض السياسية ومن يقيم عليها إدارة دفة التقييم بزاوية كاملة، ليس لرفع الغبن عن هذا «اللص»، وإنما ليكون التاريخ أكثر مقبولية أو أهلية انتساب إلى اسمه !

وعلى مستوى التاريخ والجغرافيا والديمغرافيا أيضاً، أشير إلى ما أورده أكرم جميل باشا «ت 1973 م»، في مذكراته قائلاً (قمت بأستاذيتي الثالثة في قرية تهلكي حيث قمنا بها مع عائلتي أي مع زوجتي وأولادي في تواريخ مختلفة صيفاً وشتاء ثلاث عشرة سنة مجموعاً وكنت ألقي الدروس الكردية على أطفال تلك القرية في كل شتاء.ص

موقع «ولاتي مه» بتاريخ 8 أيار 2017 : الجزيرة وحركة خويبون في دراسات المركز العربي للأبحاث وكتابه .

51.. في نهاية حزيران .. اشترينا أراضي تهلكي الواقعة على بعد «8» كيلومترات في غرب قصبة «الدرباسية» بشمال الحسكة على الحدود. وكانت الأراضي التي حول خرائب تهلكي وبمئات الكيلومترات عبارة عن صحارى فارغة تماماً دون أن يوجد بها عامر. أما اليوم فنرى أنه قد أسس في تلك الصحارى الواسعة أكثر من ألف قرية وتحرثُ فيها حوالي ألفين من الجرارات الزراعية. والمتطلع الذي أحدث في تلك الأراضي الواسعة التي كانت صحارى للكرد والأعراب أول عامر هو أكرم. والذي كان بفضله قد عمر ألف قرية وسكن فيها من الكرد أكثر من مائة ألف نسمة هو أيضاً أكرم وبضعة آلاف من القطع الذهبية التي تركها قاسم بك. ثم مباشرة: عندما حضرنا الجزيرة سنة 1929 وأقمنا بالحسكة كان «250» كيلومتر من الأراضي التي تمتد من دير الزور إلى تهلكي صحارى فارغة تماماً. وكانت الحسكة قرية تضم «50– 60» بيتاً وما كانت قائمقامية القامشلي في الشمال أيضاً إلا قرية مكونة من «40–50» بيتاً وكان في كل منهما من العلامات الحضارية مكتب البريد فقط، لا مدرسة فيهما ولا طبيب ولا مستشفى. ولذلك عندما غادرنا حلب كنا ندرك أننا نذهب إلى منفى بالصحراء هكذا. ص 53... وحتى اليوم الذي جاء فيه الأطباء إلى الحسكة فالقامشلي فالدرباسية كنت أنا الطبيب الوحيد لثلاثين قرية. ص 54...)[1]، ليصبح القول ذا فائدة جهة المقارنة ضمن مستويات مختلفة، وكيفية التحركات، ونوعية التعامل مع الأرض بعيداً عن مفاهيم ذات صبغة إيديولوجية راهنة.

(1) باشا، أكرم جميل: مذكراتي،الترجمة من التركية إلى العربية: د. قدري الدياربكري، المراجعة اللغوية والتقديم: فدان آدم، بير، ديار بكر، ط3/ 2007، وأرقام الصفحات الواردة في المتن تخص هذه الطبعة.

الفصل الثاني

شرف اللصوص، لصوص الشرف

ولكن بما أنني أحمل اسماً أعظم،
سيف الله ورعب العالم
فإن علي أن أجهد لاستحقاق هذه الألقاب
في الحرب والدم والموت والقسوة .

مارلو الشاعر الانكليزي، ضمن كتاب أرنولد توينبي: حرب وحضارة، ص 110

«لا علاقة للشرف بالحقيقة والأخلاق. ها نحن أمام كل ما يصدم جميع مظاهر الشرف بالذات حيث إن الشرف يعني الصراحة والطاعة والأدب والكرم ..»

لوي ألتوسير: مونتسكيو «السياسة والتاريخ»، ص69 .

هل من شرف مهجور ؟

ما الذي يشد اللص إلى الشرف؟ إنها لصوصيته التي تلح عليه بوجوب الرهان – ربما تلو الرهان– على شرفه. يكون الشرف فعلاً خاضعاً لتصريف الزمان والمكان، إنه هو نفسه متقلب، متحول، ومن ثم فإنه يغري بمتابعة العلاقة هذه وتحت هذا العنوان الفرعي، هو كيفية القبض على العصب المغذّي لهذا المفهوم، ليكون له كل هذا الثراء في المفهوم، أو قابلية الانتقال من صيغة إلى أخرى.

في الحالة الثانية، ما الذي يشد الشرف إلى اللص ؟ إنها القوة التي

تحفّز في اللص إرادته، بغية إعطاء ما يقوم به طابعاً من الزهو والفخار الاجتماعيين، ومن وازع ذاتي، فلا شيء أقرب إلى المرء وأكثره إثارة من مفهوم الشرف. سوى أن الشرف ليس لقية، مادة غفلاً من الاسم، إنما من حيث الجوهر على تماس مباشر بنظام القيم المجتمعي. ففي مجتمع يعيش فلتاناً أمنياً لا يعود للشرف من بعد مجتمعي يؤخَذ به، فيجري تصريفه ليكون هو وليس هو، وفي إطار ذلك، يصبح الجاري اتهامه أو تأثيمه كائناً منزوع الشرف، وما في ذلك من ملكانية عامة، وبناء عليه، فإن الكوردي باعتباره لصاً ليس أكثر من دال على افتقار المجتمع إلى مثل هذه الخصلة الجليلة .

إن ما يمكن قوله لإبراز خطورة المفهوم هو أننا على صعيد التقلبات المعيارية لما تقدم، لكَم نتغير، لكم نلبّس الشرف ما يعرّضنا للتناقض، دون مبالاة، وهي مقصودة، فـ(نحن بحق جنس عنيف على نحو مذهل؛ فنحن نتقاتل داخل الجماعات إلى درجة تصل إلى القتل في كثير من الأحيان؛ كما ننظم صفوفنا بغرض الاقتتال مع جماعات أخرى أكثر من أي جنس آخر. فنحن نتقاتل بغرض الحصول على الغذاء والجنس والسلطة، كما نتقاتل من أجل الشرف.)[1].

إننا نتحدث هنا عن تمثلات الشرف، وتحويله إلى «بورصة» تنافسية لغياب سلطة سوية عملياً !

ولعل الذي أود التركيز عليه، هو ميكانيزم اللعبة المركَّبة والتي تتمحور حول من يكون «الشريف» واقعاً، جهة سلوكياته المختلفة مع البيئة والعالم الخارجي، وما يرتبط بموقعه الجغرافي أو حتى انتمائه

(1) أبياه، كوامي أنطوني: ميثاق الشرف، ترجمة: رضوى محمد قطيط، مراجعة: هاني فتحي سليمان، القاهرة، ط1، 2014 ، ص 168 .

المكاني، وما يكون مقصياً، وهو الجاري تلبيسه بالاتهام، أي بالدخيل أو المتطفل على التاريخ والجغرافيا معاً، ولا أدل على ذلك من حرمانه من كل حضور زمكاني.

وهذا ما نتلمسه في نطاق مَن يكون المقيم في المكان أولاً، ومن كان الطارىء فيما بعد. ولعل هذه اللعبة، وفي جوهرها ذات مرجعية سلطوية، بقصد توتير العلاقات بين المتواجدين في المكان الواحد نفسه، لإحكام السيطرة السياسية وتفعيل القوة ذات المردود السلطوي المركَّز، بغضّ النظر عما يرافق اللعبة وهي تخص هوية السلطة بعروبيتها، وبلبلة «اللسان» الجغرافي في المنطقة من خلال التلاعب بمقدراتها، وبعثرة القوى البشرية بسياسات أحادية الطرف.

ذلك ما يمكن تعقبه سابقاً، وبمزيد من الدقة، في سياسة الدول التي سعت إلى تجذير لعبتها في عملية الترحيل والتهجير، والتلاعب بالتوازن الديموغرافي أو ما يوتّر الجغرافيا البشرية ذاتها، لتأتي الحكومات التالية وهي في بنيتها السياسية : التسلطية، وقد زادتها تسخين أوضاع، وللكرد النصيب الوافر من قائمة هذه «الأعطيات» تلك التي قلصت من فاعليتها وضايقتْها بأساليب مختلفة.[1].

(1) نجد ذلك على وقع تقسيم جغرافيا كوردستان، ولعبة الأنظمة المتقاسمة لها في الكورد أنفسهم، ومن قبل سياسي انكليزي بالذات، وهو والاس ليون في مذكراته العراق 1918– 1944: الكورد والعرب والبريطانيون، مراجعة وتقديم د. فيلد هاوس– ترجمة: عماد جميل مزوري، سبيريز، دهوك، ط1، 2010، حول رانيا 1922 (في كل هذه المناطق الكوردية الحدودية فمن المعتاد أن تجد كل عشيرة مقسمة سياسياً.. بهذه الطريقة فإنه بغض النظر عن القوة التي تصبح لها اليد العليا في المنطقة، فإنه دائماً سيكون هناك جزء موال من القبيلة، في موقع تستطيع فيه تتوسط نيابة عن هؤلاء الذين سقطوا مع الطرف الخاسر. ص 184) .

ومن جهة السياسي الانكليزي ويليام إيغلتون: القبائل الكوردية، ترجمة: د. أحمد محمود خليل، كوردستان، 2006، عن البنية القبلية للكرد (ولقد تشكل النظام الاجتماعي الكوردي على أسس قبلية وإقطاعية أو على ولاءات دينية، واندمجت تلك الأسس في كثير من صيغ الاتحادات. ص 21 ... ومن ثم: وفي القبائل الأضخم عدداً تصبح العلاقات أكثر تعقيداً، وحينما تتنافس فروع القبيلة على السيادة فقد تبقى النتيجة غير محسومة، وفي حالات كثيرة تتركز المنافسة بين فرعين متضادين، وإذا تطلع أحدهما إلى الزعامة بالتعاون مع الحكومة المركزية، فإن الفرع الآخر يستفيد من الكورد المعارضين للحكومة، وقد تنتزع الزعامة من الفرع الآخر في فرصة مناسبة. ص 21) .

وفي بحث للكاتب الكوردي حميد بوز أرسلان، بقوله(كانت القبائل لما يقارب قرنين من الزمن، عنصراً مهماً من مكونات المجتمع الكوردي. ص 207)، ومستعيناً ببرونس، كما في (ويمكن للزعيم أن يجد في قبيلته، الموارد التي تتيح له أن يصبح فاعلاً في دائرة قومية أو فوق قومية... مثلاً نائب برلماني في تركيا، أو فاعل على المستوى الاقتصادي في الشرق الأوسط. ص 214 ... القبائل تشكل أحد مكونات الفضاء السياسي الكوردي وإن كان من المكونات التي يعاد تشكيلها باستمرار. ص 217 .

القبيلة ليست مشروع حليف للحركات التي تتحدى السلطة فحسب، بل هي مشروع حليف للسلطة أيضاً ضد من يتحداها .ص 226 ..الخ)، ضمن كتاب مشترك: فالح عبدالجبار- هشام داود: الاثنية والدولة: الأكراد في العراق وإيران وتركيا، ترجمة: عبدالإله النعيمي، معهد الدراسات الاستراتيجية، بيروت، ط1/2006.

وبصورة مركَّزة، في كتاب: جنكيز أورهونلو: إسكان العشائر في عهد الامبراطورية العثمانية، ترجمة: فاروق مصطفى، دار الطليعة الجديدة، دمشق، ط1، 2005، إذ يقول (يعتبر تاريخ تشكل الإمبراطورية العثمانية من وجهة نظر أيضاً أنه تاريخ الاستيلاء العسكري الذي ولدته حاجة الأقوام التركية المتنقلة للعثور على أراض خالية غير مسكونة.. ص 55 .... وكذلك :إن أسلوب إسكان العشائر الذي اتبعته الحكومة ما بين 1691- 1696 أظهر للوجود سياسة الإسكان العثماني في القرن السابع عشر.. ص139).

وإذا كان لنا أن نتساءل عن «مغزى» ديناميكية القبيلة أو العشيرة في المنطقة، وتجلّي نفوذها المادي والمنعوي في تلوين سرديا حياتنا اليومية، وحتى على مستوى التفكير، وجملة الخطط ذات الصلة بمستقبل هذا الكيان السياسي أو ذاك، فلا بد من نزع المغزى عن نطاقه، واعتبار ذلك عائداً إلى جوهر السلطة بالذات، ولعبة المصالح التي تصل ما بين فئوية السلطة، وتلك القوة المشيخية أو الزعاماتية التي تتحكم بمصير القبيلة أو العشيرة هذه أو تلك، لحظة التقابل بين أدوار القوة المتحولة من موقع إلى آخر .

وذلك ما يبقينا في وضعينا ثبات ما من قبيل الاستقرار، وإنما دوام النخر والحيلولة دون تفعيل أثر قوة مغايرة لما سبق على مستوى منهجية التفكير، وصياغة عقدية جديدة بين أفراد المجتمع.

وأحسب أننا بالطريقة هذه، نصادف كماً كبيراً من اللصوص المتعاقدين والمتحولين، والمتعددي المهام والمقامات، وباتفاق مسبق، أو جرّاء تلاقي المصالح، ولو أنهم واقعاً على أتم معاداة لبعضهم بعضاً، بالنسبة لمن يكونون في الداخل، ومن هم الخارج، وعبر مستويات متفاوتة، وتبعاً لمهمة كل شخص، والتحكم بمقدرات المكان كذلك.

إزاء ذلك، يكون من المجدي، دوام التعمق في خيوط اللعبة الناعمة، واللامرئية أحياناً، والتي تلتف من حيث الهدف المشترك على «رقبة» المجتمع، وإخضاعه للتهديد عند أي محاولة ما، لجعْله خلاف ما هو عليه؛ ولا بد أن الذي ننشغل به، يعيننا في تبين حركية لعبة كهذه.

ولا بد أن مراجعة مؤلَّف: عشائر كوردستان، تأليف جماعي، المصدر السابق، مهمة جداً، وأنا أشدد على البحث المختصر لكتاب «الكورد» لمهرداد ر. إيزادي، صص «141–202»، من الناحية التاريخية والجغرافية والتنقيبية !

ومن هنا يمكننا التحرك ومتابعة خيوط لعبة أخرى، أو متممات اللعبة العنكبوتية المريعة!

ولعل تخصيص فصل كامل، وبصورة مكثفة عن المتعدد الوظائف والمهام، الألماني ماكس اوبنهايم «ماكس فرايهير فون اوبنهايم: 1860-1946»، ليس بالأمر السهل. إن مبرّر هذا التخصيص هو أن الذي عرِف به، على الصعيد المسلكي «كآثاري»، والتحرياتي، عبر رحلاته إلى شبه الجزيرة العربية وغيرها، ومتاخمته لحدود الأنّاسي أحياناً جهة الوصف للذين احتك به، ومن ثم اعتباره سياسياً وقاونياً، وموظفاً في السفارة الألمانية...الخ، كل ذلك يشكّل دعماً لمحاولتنا هذه، وتحديداً لأن ثمة حضوراً لافتاً للكرد في كتاباته، وفي المنطقة التي تعنينا [1].

اوبنهايم في موسَّعته عن البدو والتي استقطبت اهتماماً كبيراً على أصعدة خلفة، يقدّم عملاً لها صلة بنشاطه المركَّب، أي إنه إلى جانب هذا الجهد الميداني الصفة، فإنه يشكل في محتواه مسحاً طبوغرافياً ومن ثم ديموغرافياً بشرياً وسياسياً عالي القيمة والتأثير في النتائج المقدمة[2].

---

(1) في التقديم لكتابه: ماكس فون أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج «لبنان وسورية»، ترجمة: محمود كبيبو، الوراق، بيروت، ط1، 2008، نقرأ التالي (يعتبر أوبنهايم من الشخصيات الفريدة التي تملك ذلك التنوع الهائل والكبير من الاهتمام من مواضيع الحياة. فهو القانوني والدبلوماسي والسياسي والمستشرق والآثاري والمخطط الإنمائي والاستخباراتي.ص7- أما بخصوص موقعه في الاستشراق فيمكن القول بأنه صنع نفسه بنفسه.ص 8، والكتاب عبارة عن مذكرات يومية كتبها في صيف 1893 خلال رحلته من بيروت عبر حوران والبادية السورية وبلاد ما بين النهرين إلى بغداد والخليج العربي.ص 11.).

(2) ترجمت هذه الموسَّعة إلى العربية، وفي أربعة أجزاء، صدرت عن دار «الوراق- لندن، ط2، 2007»، وفي الوقت الذي اعتمدت جزئياً على معلومة مستقاة

ليس هناك من معلومة تقدَّم إلا ولها مقابل ما، وما يتعلق بالأمور الدبلوماسية وسياسات الدول، ومن ينتمون إلى سفاراتها أو قنصلياتها أو مؤسساتها ذات التوجه الدولتي يكون المقابل كبيراً.صحيح أن ثمة ما يستوجب الاحتفاء والتقدير لمن يقفون وراء اكتشافات كثيرة تخص ماضي المنطقة، وحتى على مستوى تاريخها الثقافي والأدبي والديني ضمناً طبعاً، حيث يحضر المستشرقون بطوائفهم ومللهم ونحلهم، وتوجهاتهم الثقافية المختلفة، إلا أن ما لا يمكن تجاهله، هو كيفية ضمان «نقاوة» المادة المقدَّمة، والتنبه إلى الأرض ومن وما عليها إزاء ذلك .

اوبنهايم باني نفسه بنفسه، كما يقال، أو قيل فيه، هو – ربما – أكثر من جسَّد علاقة بين الماضي، من خلال تنقيباته الأثرية «في تلف حلف بجوار سري كانيه: رأس العين»، والحاضر، من خلال موسَّعته الكبرى عن البدو. هناك مسح قاعدي، شاقولي، طبقاتي، بمتابعة مجتمعات الماضي في باطن الأرض، وهنا، بمتابعة قبائل، عشائر هي «أمم» العرب» خصوصاً، وهي تنتشر في مساحات جغرافية واسعة، مظهراً مها الهائل، وتنوع قواها، واختلاف مراتبها في القوة، إثر تصنيفها .

ربما بالطريقة هذه، أفصح عن قوة الاستشراق الألماني في المجالات كافة، سوى أنه تفرَّد بميزة التنقيب المركَّبة، كما نوّه إليه، لافتاً النظر إلى قوة الإرادة الإنسانية لحظة تمحيصها .

بصدد الماضي وعن أعماله التنقيبية في «تل حلف» سنة «1927»، كان له درس أثري.

يمكن الحديث هنا إذاً (عن التنقيبات الأثرية في مدينة كركميش

في الجزء الأول، إلا أنني اعتمدت على الطبعة الأولى، وكما سنرى، فإن الإحالة المرجعية ترتد إليها .

الواقعة على الضفة الغربية من نهر الفرات.ص11... حيث يتوجب تحديد الموقع والجهة، وفي الوسع التأمل في حساسيته ثمة حدود مصطنعة فاصلة بين رقعة وأخرى، سياسياً : يقع تل حلف في المنطقة الحدودية السورية- التركية الحالية، غربي مدينة رأس العين، وذلك في منطقة ينابيع نهر الخابور، أكبر روافد نهر الفرات، وتل حلف هو الاسم المعاصر للموقع الذي كان يدعى باسم جوزانا في الألف الأول ق. م .ص12....وهو ما يمضي بنا إلى عراقة المكان، وإمكان سماع أصوات الذين كانوا فيه، ولغاتهم وتحركاتهم، خلاف الذين يسيطرون على المكان ويديرون أموره حديثاً....وهناك المكتشفات ما يدل عن الطابع الديني، ومدى تمثيل الدين لعلاقات اجتماعية وثرائها: كانت رعاية الأموات، لتي لعبت دوراً مهماً في حياة الباقين على قيد الحياة، تعبيراً عن اعتقاد راسخ عميق بالحياة الآخرة.ص16....ثمة استنطاق الماضي: اليوم يفهم المرء من تسمية «ثقافة حلف» أنها تدل على مجموعة سكانية كانت تعتمد في الغالب على الحياة الزراعية، وكان العنصر الرابط بينها خلال الألفين السادس والخامس ق.م هو الفخار الملون .ص24....وهوية من كانوا فيه، كما يذهب المنقّب: ويتضح من المرويات الكتابية أن جوزانا عاصمة إمارة بيت بخياني كانت تقع على الطريق نحو نهر الفرات، وقد كان الآشوريون يسعون إلى مد سيادتهم إلى هناك منذ الألف الثاني ق. م.ص 29....ثم إمكان الربط بين نباهة اوبنهايم وهو يدرس كلاً من علمي النبات والجغرافيا، وما لهما من عميق دلالة، وقد استحالاً شغفاً بالحفر الباطني، ومن ثم «الحفر الأفقي»، وهو يشدنا إلى كتاب فاعل الأثر في توجهاته وإشباع نهمه البحثي «ألف ليلة وليلة» في بنية رحلاتها المتداخلة والآسرة أحياناً ، ومسح المكان : كان ماكس فون أوبنهايم يهتم خلال دراسته بعلم النبات والجغرافيا أكثر من القانون، وقد اكتشف ميله إلى التعرف على الشرق بشكل عفوي ذاتي،

خلال مطالعة كتب «ألف ليلة وليلة». وكانت رحلته العلمية الثانية إلى الشرق حاسمة في توجهه إلى العمل كمنقب أثري فيم بعد ،ص 34..ثم ما يخص جانباً مهماً من نشاطه، أي في صولاته وجولاته في المنطقة: كانت رحلته الثانية إلى المشرق، ورأس العين تحديداً، وعبر حلب، تبعاً للجدول الخص بسيرته سنة 1899 ،ص 32....ومصير مكتشفات المنقّب في متحف برلين الضخم «حيث زرته ربيع عام 2006»، في الحرب العالمية الثانية: تعرض متحف تل حلف للقصف أول مرة في 4 أيلول 1943، ولكن محفوظاته بقيت سليمة إلى حد كبير، الكارثة الحقيقية حصلت خلال القصف الجوي العنيف على مدينة برلين ، بين 22–26 تشرين الثاني 1943، وقد دمر مبنى المتحف آنذاك بشدة..ص60..)[1].

لكن رغم ذلك، فإن المتبقي يعزّز في مكانة هذا المنقّب، أو المستشرق الخاص في اهتماماته. تصوروا– ولو للحظة من الزمن– لو أن هذه الآثار بقيت في المنطقة، وتعرضت لاجتياح داعشي أو غيره، ماذا كان يحصل ؟ ذلك ما يسجّل، كما يثبت مناقبياً، وبشكل مضاعف، قيمة الجهود التنقيبية التي قام بها اوبنهايم، وهو يربط ثراء «الأصول» بما هو قائم استراتيجياً، رغم التباعد في «الأصول العرقية» لمن كانوا في الأمس أصواتاً حية فاعلة في مساحات جغرافية واسعة، ومن هم كرد ضمن، وعمَّن يعرّفون بأنفسهم «أصلانيي» المكان أو أولي أمره، أي ما يتعلق باللصوصية في «الولاية والدراية»، أو فيما يعتّم على هذه التعددية في الألسن وهي ثقافات تعرّف بأصحابها ماضياً[2].

---

(1) خوليديس، نادية– مارتين، لوتس: تل حلف والمنقب الأثري فون أوبنهايم: ترجمة: د. فاروق اسماعيل، دار الزمان، دمشق، ط1، 2006، وقد وردت أرقام الصفحات في المتن للإيجاز .

(2) أشير هنا مجدداً، إلى ابن جبير، في مصدره السابق، حين عرَّف في مدونة رحلته، دون أن يُسمّي أهلها(ذكر مدينة رأس العين حرسها الله هذا الاسم

من أصدق الصفات، وموضوعها به أشرف الموضوعات. وذلك أن الله تعالى فجر أرضها عيوناً، وأجراها ماء معيناً فتقسمت مذانب وانسابت جداول تنبسط في روج خضر، فكأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد، تحف بها أشجار وبساتين قد انتظمت حافيتها إلى آخر انتهائها من عمارة بطحائها .ص197)، وهذا ينطبق على ياقوت الحموي «ت 626 هـ/1229م» من جهته، وفي معجم بلدانه، دار صادر، بيروت، طبعة ثانية، 1995، م3، حيث تكون المدينة عربية أولاً، وإسلامية ثانياً، كما في قوله (ويقال رأس عين «هكذا «يقال» ومدى إمكان الاسم لعدم دقة المرجع»، والعامة تقوله هكذا... وليتم التطرق إلى ما قاله العرب، وجرى فيما بينهم رأسعينياً، حيث أسماء العيون تكون عربية، ومن أشهرها: عين الآس وعين الصرار وعين الرياحية وعين الهاشمية...الخ.ص 14، أي دون أي إشارة إلى آخرين من كرد وسريان وخلافهم.. وهو الحال مع عبدالقادر عياش في مصدره السابق، وهو يتحدث عنها بما يتناغم والسياسة الثقافية القائمة في سورية، وليس في تأكيد التعددية الثقافية، على الأقل، تقديراً لماض يتعدى نطاق ثقافته المؤطرة (إن منطقة رأس العين منطقة عيون ماء غزيرة، بعضها عذب وبعضها كبريتية، والنبع الرئيسي في وسط المدينة، ومنه معظم مياه نهر الخابور ومن عيونها المشهورة عين الكبريت..ص337... وبالنسبة للمكانة أيضاً كانت رأس العين طيلة القرون الوسطى مزدهرة بفضل وقوعها على الطريق التجاري الهام «عن طريق الموصل المار إلى الشام ماراً بنصيبين فرعان يقطع الطريق عند قلعة النجم ليذهب إلى منبج ومنها إلى حلب بطري بزاعة من قرى منطقة الباب بمحافظة حلب»، وكانت من مراكز الفكر والعلم..ص340.)، وهو ما ينطبق على الطابع الإنشائي لوصفي زكريا أحمد وصفي زكريا «1889- 1964»: المشاهد والآثار في بلاد الشام، دار رسلان،ط1، 2008 ، إذ يتحدث عن (أهمية رأس العين.ص 27... وعن «تل حلف» مكان مدينة حثية.، نقبها البارون ماكس فون اوبنهايم في سني 191- 1913، وفي سني 1927-1929..ص 271... كما هو وضع سواها: نصيبين: مركز قضاء، بليدة في حدود تركية.. كانت بقعة نصيبين فيما مضى خصبة جداً.ص 273... وغيرهما، حيث لا ذكر للكرد: إزاءها انتصبت بلدة حديثة اسمها «القامشلي من كثرة القصب الذي كان ثمة على ضفة الجغجغ سكانها

وكأن تنامي شغف اوبنهايم بما هو باطني: أركيولوجي لا يتجاوب مع نهمه الميداني والثقافي الطابع، ولكنه السياسي من حيث التأسيس الوظيفي، وكما كان يريد، وربما كما كان يوجَّه إليه أو يراد منه، فتكون لدينا رغبتان في رغبة واحدة: بالنسبة إليه، وبالنسبة للدولة التي ينتمي إلى نظامها السياسي ومجتمعها الثقافي، ليكون ما عرِف به، وهو في مسحه الحسابي والهندسي اعتباراً لمجموعات البدو في البلاد العربية، وفي المنطقة ضمناً تعميقاً للرغبة المسماة تلك .

طبعاً، وكما أكَّدنا، فإنه من الصعب، إن لم يكن مستحيلاً إمكان الإحاطة بما أفصح عنه هذا المنقّب الأثري وصاحب القابلية الهائلة في تعقّب الأنساب، بالنسبة للعرب، وما هو قابل للدرس والاستفادة منه على مستوى سياسي، حيث لكل قبيلة، أو عشيرة موقعها، وسجلّها النسبي، والاجتماعي والثقافي ، أو ذاكرة جمعية أقرب إلى التحصُّن والتمايز، ومفاخرها الذاتية، إلى جانب صراعاتها التاريخية والجغرافية مع الآخرين، وما يميّزها في الكر والفر كذلك، ولا بد أن اوبنهايم ومن شاركه في عملية التقصّي، كان يستهدف إعمال الذكاء العملي في هذا التوجه، أي وضْع حصاد جهوده بين أيدي المعنيين بهندسة السياسات في المنطقة، وكيفية تفعيل السيطرة المادية والمعنوية، أو إحداهما دون الأخرى، إن تطلبت الحاجة. ولهذا فإن الذي نستطيع الإتيان على ذكره هو ما يشدنا إلى المكان: المنطقة، وكيف كان اوبنهايم يتنشط، ويسجل ملاحظاته، بصدد مشاهداته وما في هذه الملاحظات من إشارات تعني المكان وطوبوغرافيته، ومن هم في المكان، وآلية العمل فيه بالنسبة للعرب وغير العرب، وجهات كل منهم، كحال الكورد واقعاً .

18000 جلهم نصارى سريان وكاثوليك وأرمن قديم ومسلمون عرب ويهود من حولي تركيا ثم جوالة من عرب بلاد الشام» دمشق وحلب».ص 374....).

ذلك ما يتعلق أولاً، بكتابه «رحلة إلى ديار شمَّر وبلاد شمال الجزيرة»، وهي المنطقة، الجهة التي تعنينا في بحثنا، وما يمكن التطرق إليه من خلال منقّبنا الكبير طبعاً [1]:

(عندما يكون في ضيافة الشيخ فارس، وهو شيخ شمَّر، في نصيبين وما يراه ويسمعه ويتأثر به، في نصيبين، إذ إنه يركّز كما هو ملاحظ في بنية كتاباته، جهة تعامله مع بني قبيلته، ومن يقصده للزيارة، ونوعية الزيارة، وماذا يترتب عليها، حيث يقول: وقد كان لي اهتمام خاص بزيارة ستة من الأكراد يقودهم صبي حسن المحيا في العاشرة من عمره.. ص24... ولا بد أن مسوّغ كلامه هذا وهو أكثر من كونه تعليقاً وتقييماً، ينطوي على خاصية إيعازية، إن جاز الوصف، لما هو مختلَف عليه بين من هو عربي ومن هو كوردي، أو ما يدخل في نطاق الخصوصية، لا العمومية جرّاء تباينات في الرؤى والمواقف والمصالح...الخ، فكأن التباعد هو القاعدة، والتقارب هو الاستثناء في الوضعية المعتادة... لاحقاً يتطرق إلى قبيلة تشبه هنا، أي بالنسبة إلينا الجملة الاعتراضية في اللغة، وهي قبيلة «**هنادي**»، إذ يشير إلى مسقط رأسها البعيد عن المنطقة: الموطن الأصلي لهذه القبيلة الصغيرة هو المغرب الذي نزحت إليه من شبه الجزيرة العربية.. وعندما زحف إبراهيم باشا في الثلاثينيات بجيوشه المصرية على سوريا رافقته قبيلة هنادي بصفة فرسان لا ينتمون إلى الجيوش النظامية، ووصلت معه إلى أقصى مناطق سوريا الشمالية، ولما غادر ابراهيم الباش سوريا بقيت

(1) اوبنهايم، ماكس: رحلة إلى ديار شمَّر وبلاد شمال الجزيرة، مراجعة وتدقيق: محمود كبيبو، دار الوراق، بيروت، ط1، 2007، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

قبيلة هنادي- ولا تزال تعيش إلى اليوم حياة شبه بدوية بين حلب والفرات، حيث وجدها زاخاو سنة 1880 م.ص 45، ولعل ذلك من النقاط المدعاة لأكثر من متابعة أو مقاربة نقدية لهذا الاستقرار المكاني، لحظة التقابل بين حضور هذه القبيلة، كنموذج حي، من بين القبائل العربية، وهي من مكان ناء جداً، وبالنسبة للكرد الذين ينتمون إلى المكان، وكيف ينظَر إليهم، أي غرباء المكان بأكثر من معنى.

ذلك ما يحفّز على إثارة نقطة، ربما لا ترد في ذهن أي كان، على الصعيد المكاني، أي بصدد هنادي بالذات، والحشد المعلوماتي المقتضب، إنما اللافت جداً عنها، في مكان آخر، وهو ما ينبغي التعرض له، لحظة التنبيه إلى إحداثية جغرافية حديثة العهد تماماً في «الجزيرة» [1]:

أقول ذلك، مشيراً إلى «قرية تحمل الاسم نفسه، عمرها أقل من نصف قرن، هو تاريخ له دلالة اجتياحية للمكان، أو لصوصية جغرافية، إن جاز الوصف. ينوَّه أولاً إلى قرية «هيمو» التي تبعد عن قامشلو قرابة ثلاثة كيلومترات، على طريق عامودا جهة الغرب، بجوارها: غرباً، تشكلت قرية «هنادي» الاستيطانية العربية منذ سبعينيات القرن الماضي وبإشراف من دولة البعث السوري، وفي خانة «المغمورين». قرية «هنادي» حيث تبرز لوحة تحمل هذا الاسم، في جوهرها ليست إلا مجموعة عددية من قبيلة صغيرة، تعود أصولها السكنية إلى شمال أفريقيا، وأن أعداداً منها قدمت إلى سوريا مع جيش «ابراهيم محمد علي باشا المصري: 1789-1848»، والذي يزعم عن أنه كوردي في

(1) اوبنهايم، ماكس: البدو«ما بين النهرين: العراق الشمالي، وسورية»، ومن ترجمة: ميشيل كيلو- محمود كبيبو، وتحقيق وتقديم: ماجد شبّر، دار الوراق، لندن، ط2، 2007، ص 431- 433.

أصوله، وهي مفارقة تاريخية كبيرة، حين يكون جالب عرب هنادي إلى سوريا، من يكون بالنسب هذا.

ربما يطرَح السؤال التالي «ماذا تعني هنادي ؟». لا شك أن عابر الطريق، أو الناظر في الاسم، قد يدقّق فيه كثيراً، سوى أن الرجوع إلى مصادر تاريخية لها صلة بالأنساب، والفصل بين نسَب عشيرة أو قبيلة عربية وآخر، وكما هو متَّبع تاريخياً حتى الآن، يضعه في صورة الحدث «اعتبار إطلاق الاسم هذا حدثاً في الزمان والمكان»، إذ لم تسمَّ القرية مثلاً، كقرى تمتد على جانبي الطريق بنسَب «الغمر»، أي «هيمو الغمر»، إنما أريدَ لها أن تكون رافعة ذات طابع عصبوي، ومن باب التمايز، وتجاهل التاريخ السيء الصيت لسجل هنادي هنا.

إن ما يورده اوبنهايم في مؤلَّف له يفيدنا في استشراف تقلبات «هنادي» هذه»:

(قدِم الهنادي في ثلاثينيات القرن التاسع عشر من شمالي أفريقيا إلى سورية، وهم قبيلة صغيرة، توطنت بين حلب والفرات. يسكن قسم آخر منها في فلسطين، تعيش قبيلتها الأم في مصر إلى اليوم، وترجع نسبها عبر تسميتها إلى هند بنت سلام إلى الذيب وسعده، الأبوين الأولين لمجموعتي البدو المصريتين الكبيرتين: سعادي وسلالمة. حافظ هنادي سورية أيضاً على شجرة نسبهم هذه، كما تبيّن صيحة الحرب لديهم: أخوة سعدهْ... وثمة تشكيك في النسب، إذ ربما تكون أصولهما بربرية: أي سلالمة وسعادي.

ليس في حوزتنا أية معلومات حول تاريخ الهنادي الأقدم، وإن كنا نعلم أنهم سكنوا في منتصف القرن الثامن عشر مقاطعة البحيرة المصرية من أعمال الدلتا الغربية، وطردهم أولاد علي، فانتشروا من هناك بمحاذاة مجرى النيل إلى بني سويف وجرجه، حيث تحولوا إلى

الاستقرار بعد أن حطَّم محمد علي سطوتهم... هاجر هنادي، منذ بداية القرن التاسع عشر، فرادى إلى فلسطين وسورية، ثم رافقت أعداد كبيرة منهم الجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا الذي احتل سورية عام 1832 م. رابط قسم من قوات القبيلة قرب غزة في فلسطين، كما تبعهم فيما بعد الشيخ عقيلة آغا إلى الجليل، بينما وطن ابراهيم باشا قسماً آخر منهم بين حلب وبحيرة الملح في الجبول ، سعياً منه لإقامة حاجز يصد عنه غارات البدو. هؤلاء الهنادي استخدموا فيما بعد ضد الأتراك، وقادهم شيخهم حجي بطران بعد معركة نزب «24 حزيران 1839م» إلى سورك ورأس العين، لكن شمر ردتهم على أعقابه. بقي الهنادي في سورية، عندما غادرها الجيش المصري في السنوات التالية. وقد أدخلتهم الحكومة التركية في خدمتها، واستخدمتهم كشرطة ضد البدو، لكنهم عجزوا عن حماية الفلاحين منهم إلا في حالات نادرة «وبعد مستجدات»، واصل الهنادي فيما بعد التطوع في الجيش والدرك التركيين. فكان الشيخ حسا آغا الذي قابله زاخاو عام 1880 برتبة مقدم في الجيش، وكان أخوه أحمد بك ملازماً في الدرك .

يسكن الهنادي الآن شمال الجبول «شرق الباب»، يعملون في الزراعة وتربية المواشي واستخراج الملح...قدمت أسر عديدة في التسعينات من القرن التاسع عشر من مصر إلى سورية، وسكنت قرب حماة، حيث انضم إليها مهاجرون من طرابلس، قدموا إلى هناك بعد الحرب التركية- الإيطالية .).

في النص «الاوبنهايمي، إن جاز التعبير، ثمة تساؤلات تُطرَح وهي على تماس مباشر بقائمة المتحولات التي طرأت علي المنطقة: حقل البحث هنا، وتحت يافطة الشعارات القوموية العربية، وفي الواجهة: كيف يمكن الربط بين «هنادي» اللوحة المعدنية التي تنتصب على قارعة

الطريق، كما لو أنها حقيقة مكانية، والأصل المشكوك فيه، عدا عن كون الأصول ترتد إلى شمال أفريقيا، وأكثر من ذلك إلى امرأة هي الأخرى غير متيقَّن من حقيقتها ؟

ما الذي يمكن قوله عن الانتشار «الهنادوي» في جهات مختلفة، خارج البحث عن مغانم عن طريق الحرب وفي ظل الآخرين، دون السؤال عن البعد القيمي لعملية الانضواء ؟

أي لصوصية مموَّهة، ومستفزَّة، هذه التي تتوارى وراء أكثر من قناع: مع أي جهة، شريطة أن يقدَّم لها ما تعتبره هذه القبيلة الصغيرة الضئيلة الشأن في السلَّم القيمي العشائري العربي، أكثر من كونها لصوصية تتقدمها وتعرّف بها في عملية التبعية بالمقابل ؟

أي نوع من الشرف «القومي» أو أصالة النسَب، أو شرف الاعتداد المطلوب بالذات، لجماعة مستعدة للحاق بأي قوة تجد فيها بغيتها ولو على حساب الحد الأدنى من تمايزها ؟

كيف يمكن تقدير المسافة الجغرافية بين كرد يتحركون في نطاقهم الجغرافي ويقال على مستوى النظام عن أنهم قدِموا من «الشمال»، ومن جاؤوا من وراء آلاف الأميال ليتم تطويبهم أهل المكان، والمعنيين به ؟

أي كوميديا تاريخية سوداء في الجاب الآخر، مع ابراهيم محمد علي باشا الدياربكرلي الأصل حين يأتي بفلول من هؤلاء الهنادبين» ، ويستبقيهم في البلاد، ليصبحوا عالة عليها وعلى العباد، وفي المقام الأول «الأكراد» ؟

الإمَّعية كلقب لافت، جهة الانتقال من مكان إلى آخر، والدخول في طاعة أي سلطة، ولو ضد بني «جلدتها» من العرب الآخرين: مع ابراهيم

باشا ضد الأتراك، ومع الأتراك ضد البدو وها هم أفرادها مع نظام يحتويهم، ليكونوا حتى ضد «عرب» المنطقة، والكورد في المتن؟!

وبصدد الشرف، بالمعنى الواسع للكلمة: لم نسمع «لم أسمع أنا»، بأي مجابهة ضد الطغيان التركي من قبل أي جهة/ جماعة، فئة عربية بقيت ضمن حدود الدولة التركية سياسياً، ومنذ أكثر من مائة عام «قرن كامل»، تأكيداً على وعي بالمغايرة خلاف الكورد الذين لم يتوقفوا عن عملية المجابهة هذه، بغض النظر عن أسلوب التحدي، أو النتائج، حيث التمايز الذاتي ملموس.

مَن في وسعه إمكان الكشف عن اللصوصية الرحالة هذه، وخاصية الشرف المرافقة لها ؟

إنها أكثر من حالة مداهمة لجغرافية المكان، ولما يمكن أن يثار، وكيف أن يجرَّد المكان من اسمه، بقدر ما يصار إلى التعتيم عليه تاريخياً، وبالتوازي مع أهليه: الكورد بالدرجة الأولى.

فيما بعد ينتقل اوبنهايم إلى نقطة أخرى، كما هي حلقات سلسلته الرحلاتية، حيث تتم: مغادرة مخيم شمر، القرى الكوردية، وما يشاهَد بعد ذلك» جاء مدير شدادة ومعه بعض أتباعه من الضابطية إلى مخيم الششيخ فارس واغتنموا الفرصة للسفر معنا إلى الموصل، هكذا استطعنا أن نكوّن فرقة من عشرين فارساً مسلحاً جميعاً حتى نستطيع الدفاع عن أنفسنا من قطاع الطرق الأكراد، أو من غزوة صغيرة قد تقوم بها قبيلة عنزة.ص178...أي إن موضوع الأمن في سلَّم الأولويات، وهو ما كان يجب التأكيد عليه، وللأكراد حضورهم الجدير بالتثبيت، ومن ثم: قول البدو له «للمنقّب» أن قرية ليلان كانت في العصور الوسطى مدينة عربية- ربما مدينة أضرمة القديمة..ص180.... وهي رواية شفاهية شأن روايات كثيرة، ربما لم يعبأ بها الألماني، أو لم يعطها

وزناً، وربما أصغى إلى ما قيل وترك التحليل لنفسه، أو لمن يهمهم وضع كهذا في مؤسسته، إذ ما أكثر إمكانات التزييف، بالنسبة لمواقع لا يعتَّم عليها فحسب، إنما إلى منح الاعتبار لتاريخ قطعي، هو الرسمي، ولتبقى الرواية الشفاهية دالة على هذا التوجه الرسمي.

وفيما بعد، حيث تبرز علاقات من مستوى آخر اجتماعياً، بين الكورد والمسيحيين، في قرية أخرى وكيفية استقباله من الأكراد، ونسطورية الكورد، وهي معلومة فاعلة بتأريخها: وكان مظهر جميع رجال القبيلة يدل على أنهم مقاتلون، وكانوا رجالاً أقوياء البنية تظهر عليهم سمات الجنس الكوردي، يدينون بديانة أهل الحكمة «نسطوريين» ويتقن هؤلاء الأكراد المسيحيون استعمال السلاح على غرار أقاربهم المسلمين في القبيلة..ص181.. ومن قرادة إلى عابرة: وصلنا الساعة الثانية والربع إلى قرية قبور البيض حيث التقينا من جديد بقافلتنا التي انطلقت قبلنا وانتظرتنا قليلاً في هذا الموضع، وكان سكان هذه القرية من الأكراد وكانت هذه المرَّة الأولى التي أجد فيها أكراداً يقيمون في السهول..ص181... وهذا التحديد الزماني، أو في التوقيت لمن يحيط علماً بجغرافية المكان، إنما يرتبط بسلوك طرق ليست اوتوسترادية، كما يظن، إنما لها صلة بممرات أو معابر أكثر أماناً، وفي منطقة غير مستقرة.

ولعلنا في انتقالنا إلى رقعة جغرافية نجد ثمة اختلافاً حول اسمها، وهي الآن ناحية جل آغا: أربعون آغا بالكوردية المتداولة ، والجوادية بالتسمية الرسمية»، حيث يردُ اسمها هكذا، وكما تصوَّر، أو من خلال السؤال: تل جلاغا: تبعنا في صباح اليوم التالي الساعة الثامنة والنصف قافلتنا التي كانت قد غادرت قبل ذلك بنصف ساعة في اتجاه الجنوب الشرق، وتوجهنا في هذا اليوم إلى الجنوب الشرق صوب قرية قره

جوك الواقعة غربي دجلة، وعلى مسافة بعيدة في اتجاه الشمال الشرقي وراء نهر دجلة ارتفعت كتلة جبل الجودي الذي توقفت عنده سفينة نوح بعد الطوفان حسب ما يرويه أهالي البلاد استناداً إلى ما ورد في القرآن «واستوت على الجودي- سورة هود، الآية، 44»، ووصلنا الساعة التاسعة والنصف بعد منعرج يتجه إلى الشمال إلى تل جلاغا الواقع على شمال طريقنا، والذي يكون موقع المدينة العربية القديمة «باشزّة، وتشمل القرية الواقعة على القمة اثني عشر كوخاً تقريباً من الطين تكاد تكون متداعية جميعاً» ولعلنا في التوضيح، في الهامش، وبالنسبة لجل آغا نقرأ ما يفيد ويفيد خانة الاسم: يذكر كثير من المؤلفين جلاغا، فيقول ريتر في المرجع المذكور المجلد 11، ص 430- 434 «جبل آغا» أو «جيرلا» أو «: تيل آغا» ويقول كبير – رحلة في آسيا الصغرى، أرمينيا وكوردستان، لندن 1818 م، ص 447 «تشيلي آغا»، ويقول باكنغهام – رحلات في بلاد ما بين النهرين، لندن 1827 م، المجلد 1، ص 435 «شهيل آغا»، ويتحدث مولتكه في المرجع المذكور، ص 270 عن قرية «تيلاجا» ويكتب كاميرون في المرجع المذكور المجلد الثاني، ص 120. أعتقد أن سفح جبل طور عابدين كان يبعد مسافة ساعات عديدة عن جلاغا.«ص 184»...إن كل ذلك له علاقة بالمختلَف عليه لغوياً، وبمن يتسقط الأخبار عن بعد، أو يجهل لغة أهل المكان أصلاً، سوى أن الذي يظهر هو أن اوبنهايم يقطع مسافات طويلة، وأنه في كل مسافة يسجل ملاحظاته بقدر ما تترافق مع انطباعاته، ليكون المشهد المذكور أكثر حيوية ودلالة أبعاد.

وليكون الانتقال إلى تل آخر، كما الحال مع «تل آغا»، كما يبدو، حين يكون التل مَعلَماً مكانياً، كمرتفع أرضي، ومن باب رؤية الجهات أكثر، ولاعتبارات السلامة، حين تكثر الأمطار، وثمة قرى كثيرة تعرَف

في هذا السياق، والتلال الآخر هو تل رميلان بين سنجار ودجلة، وهو «رميلان» الحق النفطي الأشهر في الجزيرة، حيث يمتد طريق طويل يربط ما بينها ومدن أخر: لا تزال نباتات الحلفاء والعشب تنمو على الضفاف التي قد تغطيها الفيضانات في فصل الأمطار، وكان السهل- فيما عدا ذلك- تامَّ السواد بسبب حريق نشب في البراري، وقد بلغني أن هذا الموقع تابع للمنطقة الزراعية التي يملكها أكراد جلاغا ..ص185... وهو وصف لمنطقة كانت تعرَف بغناها الطبيعي على الصعيد النباتي، وفي فترة زمنية، قبل أكثر من قرن .

لننتقل إلى كتابه الآخر، ففيه ما يفيدنا أيضاً، بالنسبة لمعالم جغرافية وديموغرافية وغيرها[1]:

(ثمة في البداية ما ينصبُّ على الجغرافيا الواسعة وحدودها : بلاد ما بين النهرين هي الأرض الممتدة شرق سورية في الشمال الغربي من جبال قرجه وجبال طور بين نهري الفرات والدجلة ... ص17... ومن ثم: الجزء الشمالي يُسمى الجزيرة، والجنوبي: العراق.ص18.. وكذلك: يشير إلى خروج دجلة من امتدادات جبال ردستان.. ص21.. ومنبع الخابور: ينبع الخابور الأصلي عد قرجه داغ جنوب غرب ديار بكر ويوجد نبعه الرئيس عند قرية رأس العي الغرقة في القدم.. ص29... وأهمية المكان المحيط بالخابور على المستوى الطبيعي والاقتصادي: تُعَد المنطقة المجاورة للخابور ، للأسف، من أخطر أجزاء تركيا الآسيوية. فلأن النهر دائم الجريان يتيح المجال للغزو في جميع

(1) فون أوبنهايم، ماكس: من البحر المتوسط إلى الخليج «العراق والخليج»، ترجمة: محمود كبيبو، مراجعة وتقديم: ماجد شبّر، الوراق، لندن، ط1، 2009، الطبعة الألمانية الأولى برلين1900، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

فصول السنة.ص31...تلك معلومات مكثَّفة، لا بد أنها ممرَّرة بغية التوقف عندها، إن على صعيد المكان وإمكان استثماره، وموقعه بالنسبة للسكان، أو من جهة الثروة المائية واستراتيجية الماء عملياً، وإمكان الاستفادة منه في مشاريع مختلفة.

وفيما بعد ما يشبه بطاقة تعريف وامضة، عن نهر دجلة والمنبع الذي يُسمَّى بالاسم المعلوم :

خروج دجلة من امتدادات جبال كوردستان.ص21... والعودة إلى تاريخ سابق بصدد المعارك الإسلامية في المنطقة بالذات: استولى المسلمون على عربان وجميع مدن منطقة الخابور بالطريق السلمية. وفي المرحلة العربية أيضاً كانت عربان«مدينة قديمة» لم تزل عاصمة لبلاد الخابور والمركز الكبير لتجميع القطن. ص39- يبلغ مرتفع تل حسكة نحو 20 م ويمتد نحو الشمال ليلتحم بمرتفع بركاني صغير أقل ارتفاعاً.ص43... ومن ثم تتالي الجهات والقرى، أو الأماكن التي مر بهام نقّبنا حيث الأسماء تسجَّل، إلى جانب تقدير المسافات تبعاً للمسالك المعتمدة، ولعلم من يعلم أو يريد أن يعلم، فإن قائمة الأسماء المختلفة هذه، تذكّرنا من جهة بطبيعة المنطقة وكيف كانت تدار وقتذاك، ومن هم الذين كانوا يتجولون فيها، من هم الذين كانوا يستقرون فيها، فما أكثرها من مساحات خالية من السكان، كما هو مفهوم «برّية ماردين»، إلى جانب التنوع السكاني والمعالم الدينية المختلفة: المسيحية والإسلامية، وكل ذلك يمثّل سجلاً غنياً بالمعلومات المترجمة لزاوية النظرة عند المنقّب والرحالة والسياسي الألماني التي لا بد أنها أكثر وساعة وبعثاً للطمأنينة من آخرين ذكروا سابقاً ابن جبير، ياقوت الحموي، وحتى حديثاً حال عياش- زريا جرّاء الاختزال التاريخي والديموغرافي والثقافي للمنطقة، وهذا ما يشدّد على عمق التوتر الداخلي، وتجاذب اللصوصيات التي تحتكر المكان وأهله

هنا وهناك، أو كلاً من الجغرافيا والتاريخ، بقدر ما يأتي وصف اوبنهايم دقيقاً أي ما يستجيب لمفهوم الإيجاز، ولمن يمكنه الاطلاع على كتابته وكيفية الاهتداء إلى المكان الموصوف من خلالها : من تل حسكة تابعنا مسيرنا إلى نصيبين باتجاه شمال غرب في بادىء الأمر ثم باتجاه الشرق وأخيراً باتجاه الشمال الشرقي حتى وصلنا إلى مقصدنا ص46...وفي الساعة التاسعة والنصف أصبح على يميننا تل حمدة. في خريطة هاوسكنيشت رسم تل سمّي «تل الأحمدي». ص48... وفي الزاوية المتشكلة بين سيل أبو راسين والجغجغ كان يقع على يمين طريقنا تل أثري كبير هو تل الذهب .ص49... وفي الساعة الثانية عشرة اجتزنا مجرى مائياً عرضه عدة أمتار اسمه خنيس وهو الذراع الغربي للجغجغ الذي يتفرع عنه على مسافة قريبة من نصيبين شمال غرب المدينة. وقبل مسافة قصيرة من تقاطع طريقنا مع الجدول كان الجدول قد التف في نصف دائرة نحو الجنوب حول هضبة مهمة إلى حد ما واقعة على يسارنا اسمها «تل أبو ذويل». . وفي حوالي الساعة 12 و20 دقيقة كان على يميننا بعيداً بعض الشيء تل الحاج بدر، وفي الساعة الواحدة، على اليمين أيضاً وإلى الشرق، هضبة تل طرطب وتل طراطب، وبعد عشر دقائق على يسارنا في الغرب تل فارس الذي تنتشر على سفحه قرية حديثة البناء.ص49... ووصلنا في الساعة الثانية إلى مدينة نصيبين التي كانت قد ظهرت أمامنا منذ فترة من الزمن مع أعمدتها القديمة المنطلقة من تلال ركامية ضخمة.ص 49.... يشير إلى كنيسة مسيحية، ومن ثم ضريح حجري كبير للقديس يعقوب، وأنه كما الحال في الشرق فإن المسلمين أيضاً يكرمون هذا القديس المسيحي. ص 50... يتفرع الجغجغ فوق المدينة إلى فرعين يسمى الأول، خنيس، ويتفرع الآخر في الجزء الشرقي من المدينة القديمة» نصيبين.ص51...ومن ثم ما هو سردي

تاريخي وأثري: حسب الأبحاث التي أجريت حتى الآن ورد اسم نصيبين لأول مرة في العهد الآشوري. ففي القوائم الإدارية للمنطقة والعائدة لعام 816 ق. م .ص 52... ولا تتوفر لدينا سوى معلومات قليلة عن نصيبين في ذلك الوقت. كانت المدينة تشكل مع محيطها مستعمرة إغريقية مزدهرة ضمن المملكة السلوقية تحت اسم أنطوخية المقدونية...وفي القرن الأخير قبل الميلاد ظهرت في شمال ما بين النهرين فجأة امبراطورية كبيرة تصفها كتب التاريخ عادة بأنها أرمنية، على الأقل يحمل حكامها أسماء أرمنية.ص53... وبعد انهيار السلطة الرومانية عادت نصيبين مع منطقة شمال ما بين النهرين إلى أيدي الفرس.ص55....وفي عام 640 م، خضعت نصيبين للقوة الصاعدة المتمثلة في الفتح الإسلامي والتي استولت خلال أعوام قليلة على بلاد الرافدين بكاملها بعد أن كالنت عاصمة الامبراطورية الساسانية طيتسيفون «المدان» الواقعة على نهر دجلة قد سقطت قبل ذلك بسنتين في يد المسلمين. ص 56...وما ينوَّه إلى مكانته في الاعتبار الثقافي له، أي بصدد عامل الصحة، وصلتها بأوضاع الناس المعيشية، إنما أيضاً بمدى اهتمامهم بصحتهم، وما يترتب على ذلك من قيمة اعتبارية للجسد وأهميته: ومما يعيق تطور المدينة في الآونة الأخيرة المناخ غير الصحي. فالناس يزعمون أن الفرع الغربي من الجغجغ، الخنيس، تجري فيه مياه تجلب الموت. إلا أن الاحتمال المرجح هو أن إهمال التفريعات المائية وركودها، الأمر الذي حدث مع تداعي المدينة وتراجعها، هو السبب في نشوء الأمراض الفتاكة التي عصفت بالمدينة. كما أن زراعة الأرز التي بدأت هنا منذ بعض الوقت لها علاقة كما هو معروف بانتشار مرض الملاريا...ويوسّع في المشهد: عندما قام الرحالة الإنجليزي كاميرون بتكليف من حكومته برحلة عبر بلاد ما بين النهرين من أجل دراسة مسار خط دجلة الحديدي الذي كانت الحكومة

البريطانية تخطط له آنذاك «1879» انتشرت في نصيبين موجة عنيفة من وباء التيفوس راح ضحيتها عدد كبير من الناس. ولا شك في أن تنظيم مجاري المياه في نصيبين وحولها واستغلال الأرض الخصبة جداً في وادي الجغجغ بطريقة عقلانية سيؤدي بالتأكيد إلى تحسين الظروف الصحية في المدينة، وبذلك سيتوفر الشرط الجوهري الرئيسي لكي تزدهر المدينة من جديد .ص 58... وفي مكان آخر، ما يترجم علاقة البدو بحياة معينة معتاة: لعل كره البدو لحياة الاستقرار يوضح أيضاً السبب في أنهم لم يتحدوا أبداً ويكوّنوا شعباً موحداً .ص75... وثمة التاريخ: بعد وقت قصير من تثبيت قبيلة شمر أقدامهم في سورية جاءت موجة جديدة من المهاجرين من شبه الجزيرة العربية تتألف من قبيلة عنزة الكبيرة. لم تزل بقايا هذه القبيلة موجودة حتى اليوم في جنوب نجد ويشير اسم مدينة عنيزة الموجودة هناك إلى موطنها الأصلي.ص 79... وما أتي على ذكره سابقاً: ممارسة السلب علناً واحترافه يعتبره كل بدوي حقاً طبيعياً له..ص124... ينبغي على الشيخ الذي يحرص على سمعته القيام بغزوة أو غزوات كبيرة كل عام تدوم الواحدة منها في كثير من الأحيان أسابيع أو ربما أشهر..ص126... يحرص البدو على المحافظة على حياة خصومهم ولذلك يحاولون التسلل إلى مقربة العدو من أجل مباغتته..ص126... والأهم هو الجانب العقيدي، وعلاقة البدوي بأمور العبادة، وهي التي تذكّرنا «تذكرني» بمدى ضعفها حتى الأمس القريب جداً، أي من باب التأكيد على كلام اوبنهايم، إذ العبادة تشد إلى المكان، والبدو كائن متنقل، رحالة، فكأن له ما يبرره في صلته الواهية بالدين، وأن بروز الصلة القوية بأمور العبادة لدى البدو، أو من أصبحوا سكنى المدينة إلى درجة التشدد، كما في العلاقة مع داعش، لا ينفصل عما تقدَّم، لأن في ذلك فورة العصبية وآفتها: من النادر جداً أن يرى المرء البدو يقيمون الصلاة، لا بل

إن غالبيتهم لا يعرفون القواعد والحركات المتبعة في أثناء ذلك. ولكم كان المشهد طريفاً عندما كان الشيخ فارس السمين المتراخي يحاول بحضوري ، وبتظاهر واضح، أداء الواجبات والتعاليم الدينية، وكم كانت كبيرة الأخطاء التي وقع فيها رغم كل ما يبذله من جهد. ولم يتبعه رجل واحد من مئات الرجال الشمريين الذين كانوا جالسين في خيمته. وهو نفسه قطع صلاته عدة مرات لكي يناقش بعض الأمور اليومية، وهذا أمر ليس نادراً عند الشيعة المتعصبين. ص 163... والانتقال إلى جهة أخرى: ووصلنا في الساعة الثانية والربع إلى قرية قبور البيض حيث التقينا من جديد بقافلتنا ...هذه القرية أيضاً كان سكانها من الأكراد «قبلها قرية قرادة» وكانت هذه أول مرة أشاهد فيها أكراداً يسكنون في السهل. ص170... وفي الساعة الخامسة و25 دقيقة مررنا قرب قرية بناها الأكراد على تل فارسوك.ص 170...وتسمية حيوانات لم تعد موجودة اليوم نظراً لتحولات بيئية واجتماعية واقتصادية، حيث رؤية: الخنازير البرية في قره تشوك..ص175....وما يشد المكان إلى مدينة لها عراقتها: تعتمد أهمية بغداد اليوم، بالدرجة الأولى، على موقعها المناسب جداً، بالنسبة لحركة المواصلات العالمية.ص 293... ما يبقينا في تاريخ متشدد، يصلنا بأثريات التشدد بالأمس بجريان فعله حديثاً أي عن علاقة الوهابية بالجماعات الدينية المتشددة: في عام 1801 هاجم الوهابيون كربلاء المقدسة عند الشيعة ونهبوها. وعندما حاول شاه الفرس على أثر ذلك شن حملة انتقامية ضد العصاة رفضت تركيا السماح له بالمرور في بغداد، ولذلك اكتفى الشاه بتكليف قاتل مأجور باغتيال أمير الوهابيين عبدالعزيز. وفي عام 1807 تجرأ الوهابيون على شن هجوم على النجف، وفي عام 1810 حاولوا مجدداً الاستيلاء على كربلاء، لكن المحاولتين باءتا بالفشل. ص324...الخ) .

إزاء ما تقدَّم، ربما، يكون من السهل رؤية التصدعات في العالم القيمي الذي يتشابك مع عالم اللغة السائدة أكثر من غيرها، حيث إن مجرد انتشار، أو تلمُّس هيمنة لغة على لغات أخرى، وهي تتميز بقِدمها التاريخي، يعني في الحال، أن هناك مشكلاً، يتلخص في عنف السائد، أي في اعتبار اللغة على مستوى المقاربة النقدية أداة قمع لسواها، من قبل السلطة التي تعرَف بها .

ذلك ما يعرضنا للكثير من التساؤلات التي تبقينا في مهب ريح التاريخ والثقافة المختزلة، إلى جانب أن المتاحَ النظر فيه هو ما يخضعه للغة الاستجواب: لماذا هو وليس سواه.

في السياق نفسه، يغدو في حكْم الإمكان الحديث عن مفهوم «الشرف»، وأي نوع يكون، في ظل استبداد مجتمعي الأبعاد، أو سلطة تسمّي ما يتناغم مع سياستها، وتنحية المرفوض.

أليس هذا ما يمكننا تعقّب خيوطه المرئية، السميكة أو الثخينة، وليس الرفيعة، في بنية التاريخ المزكَّى أكثر من سواه، عبر لغة «الضاد»، والجغرافيا التي تسلَخ عن عالمها التليد، وعن أهلها الذين عرِفت بهم أكثر من الذين نسبَّوها إلى لغتهم «حال العربية»، وما يترتب على ذلك من حيازة الزمان والمكان، ومن استملاك مقدراتهما معاً، وتيتم أهليهما وفجيعتهما بهماً معاً .

وأرى أن الدائر أو الصائر، لا يعدو أن يكون لصوصية عالية المستوى، وهي التي يفترَض أن تكون مدار تعرية ثقافية، وليس الكوردي الذي يشار إليه وهو دون الحد الأدنى من تاريخه، أعني بذلك: دون الحد الأدنى من جغرافيته، وما فيها من طبقات شاهدة عليها، ظاهراً وباطناً .

الفصل الثالث

اللصوصية خياراً، اللصوصية اضطراراً

« ... وعندما لا تقوم جهات خارجية بالدفاع عن مصير اللغات القزمة في دولة ما، حينئذ يمكن النظر إلأى الصمت على أنه صنو لانخفاض الوعي بحقوق الإنسان تحت مستوى المقاييس القائمة والمعتمدة من قبل الدول المنفردة» .

هارالد هارمان: تاريخ اللغات ومستقبلها : ص 223 .

« .. وإنني أبارح كوردستان بأسف لا حد له، فما كنت أتوقع أن أجد فيها أطيب الناس الذين لاقيتُهم في لاشرق كله. فقد عقدت الصداقة فيها، وعوملت بإخلاص متناه أينما حللت، وبلطف وبضيافة لا حد لهما، وأخشى أنني سوف لا أنتظر مثل هذه المعاملة خلال سياحتي المضنية، ولسوف تبقى هذه الذكريات عالقة في قرارة نفسي ما حييت»

رحلة ريج، المقيم البريطاني في العراق عام 1820 إلى بغداد- كوردستان- إيران: ص306.

يمكن لنا أن نفصل بين كون المرء متصرفاً وثمة استقلالية تشهد على ذلك، وكونه مؤتياً على سلوكيات، تشهد النقيض: عدم تمتعه بتلك الاستقلالية التي تمنحه ذلك الكيان الإنساني المعتبر.

وما أكثر ما قيل وتردَّد حول جدل السيد- العبد، حيث إن السيادة تعرَّف بنفسها، بقدر ما تؤكد سلطتها، على قدر دنو العبودية منها، أو وهي ليست مقطورة وراءها، وإنما تتبعها، كما تتقدمها ليكون طريقها آمناً، وكأن عنف السيد بالصورة هذه يتأسس على طواعية العبد.

لعلّي هنا، أسطيع ممارسة تفكيك لهذه اللعبة المجتمعية التي لما تزل مستمرَّة، وهي أن وجود كل هذا «الثراء» الخللي، إنما عن واقعة شديدة البؤس، عن سيادة تجرّد ذاتها من تلك السيادة التي تزعم أنها تعيشها، وهي مقصية عنها، إلا إذا توهَّم لها أن السيادة لا تعني أكثر من قمع الآخر، بما أن السيادة التي تشد إليها عبودية ما، وهي في مجتمع مضطرب، مختل التوازن، تائه في مدار التاريخ/ الزمن، هي في واقع الحال على أعتى ما يكون من الطعن في بنيتها القيمية.

وأحسب أنه بالصيغة هذه، يمكن التعرض للصوصية التي تكون خياراً، وما فيها من ارتداد إلى السيادة القامعة لذاتها الحرة/ الواعية قبل سواها، وبلغة تعنيها وليس سواها، وهو خيار يدفع بها نحو عنق زجاجة التاريخ، إلى درجة الاستعصاء المزمن، كما هو وضع مجتمعاتنا، طالما أن تنامي العنف المميت والجارح والمحبط للآمال، يستشرف نكأ الجراح في الصميم، وهو خيار لا يمثّل إلا الوجه الأكثر قبحَ قيمةٍ تاريخياً، على النقيض من اللصوصية حين تكون اضطراراً، أي حين يندفع أحدهم إلى نهب الآخر، أو الاعتداء عليه، أو مداهمته في عقر داره، أو الإساءة إليه، مع معرفة الأسباب القاهرة الدافعة له إلى ذلك، فتلك موجبات تترجم حيوية الروح، وسؤددها، ولو بمزيد من الإغارة على الآخر في تعريته أو اعتباره موضوعاً للذم أو التهكم كذلك.

ثمة أكثر من لصوصية، ولكل منها مراتبها، ولا أن هذا الفصل يتطرق إلى نماذج كتابية، يحضر فيها الكوردي، وهو أكثر حضور أثر، أو بروز قيمة، لكنه على مستوى القيمة الفعلية، يحتاج إلى الكثير ليشبَّ عن طوق الآخر: المستبد به، وهو في كمه الهائل، إذ ليس بالضرورة أن يكو الآخر شخصاً معيناً، حاكماً بعينه، مسئولاً بعينه، جماعة بعينها، إنما كيان مجتمعي، إلى جانب ثقافة متداولة، وحتى بناء خرافي، وأمثال

وأقوال في هذا المسار، وتوجهات إعلامية، فهي في مجملها في مقام حشود قوى مطاردة له، بما أنه لا يملك من أمره إلا جمر المكابدة.

وإذ أنوّه إلى هذه النقطة، وهي ذات قاعدة واسعة وسميكة ومتجذرة في واقع عريض، فلأنها تضمن لنا «لي هنا» الكثير من طرق التحرك، وأفق لرؤية المطلوب تبيّنه، أو التعاطي معه، من خلال نماذج تتضمنها أدبيات الرحالة، يكون الكوردي فيها قادراً على الكلام، على التحرك، على إقامة علاقات، على الدخول في حوار، أو سجال أحياناً، إنما سلطة المناخ اللعام، وهي اجتماعية وسياسية وثقافية مديدة، تسلط عليه نوعاً من الضوء كاف لإظهاره في نصفه، وبشكل غير ثابت كما هو الوضع الفيلمي لهارب من «العدالة»، ومطارَد، حيث إن الأساليب الدفاعية في المحصلة مهما أظهرت جسارة في المجابهة، إلا أنها تقوم على خزّين مكبوتات، على قهر لا يموَّله إلا مجتمعه الذي ينتمي إليه، وموقعه الذي يعرَف به، وما في هذا التحرك الجهوي، من إملاءا رئية وغير مرئية لسلطان الآخر، في محكومية لا تنتهي، ومساءلة لا تتوقف، أي ما يضعنا في دائرة لصوصية من نوع مميَّز في التقنية والإيقاع به، ليكون موضوعها«شيئها» !

على الصعيد السياسي، وهو المجدي أهميةً، وبالنسبة للمنتمي الأوربي ثمة مجال للتعرف إلى تفاوتات، أو اختلافات كبيرة جهة الموقف من الآخر، على خلفية من المعرفة المحصَّلة في أوربا، حتى داخل الجهاز المفاهيمي الواحد بالذات، وهذا ما يمكن معاينته في المؤسسة المعتبرة استشراقية، أي ما يسمح بالكشف عن وجود أرضية للتواصل مع المتكلم بلغة الاستشراق، أو ما يكونه القول «الغربي».

وفي «رحلة ريج «1787–1821»، وهوالمقيم البريطاني في العراق عام 1820»، إضاءة لمثل هذه اللغة التفاوتية، مما يسمح برفع الحكم المطلق، أو تأكيد التقييم الواحد أو نفيه.

ليس هناك خطاطة رؤية، إنما ترجمة لعلاقات في مشاهد حياة يومية تجسّد هذا النوع من التدبير في الاتصال، وهذا التعبير عن التفاعل (ما له صلة بمشاهدة زمانية ومكانية خاصة، وليس كل الكورد، لأن الرحالة لم يلت الكورد كافتهم، إنما مجموعة منهم، وهي ملاحظة تنم عن متابعة متكررة، وإلا لما كان هذا التوصيف، أي ربما يكون الكورد الذين يعنينا أمرهم خارج نطاق هذا «التقرير» ذي المعلَم الاثنوغرافي بجلاء: والكورد هم الشرقيون الوحيدون الذين أعرف أنهم يسهرون إلى ساعة متأخرة من الليل، وينهضون في ساعة متأخرة صباحاً، وقليل من سادة السليمانية من يأوي إلى فراشه قبل الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل... ص108....

وهذا يمتد إلى إجراء ما يشبه الاثنوغرافيا المقارنة، وفيها في الوقت عينه حضور إناسي بالمقابل: والكورد لا يلغطون أو يتصايحون فيما بينهم عند الكلام كالإيرانيين ولكنهم معتادون على الصياح المفاجىء والصراخ.. ص298...

والحال أن التقييم الذي يطال سلوكاً فروسياً لا يخلو من طرافة، إنما بالتوازي يتطلب من الناظر، أو متلقي الخبر المزيد من اليقظة وتمثُّل دور الملاحظ العلمي وما له صلة بسلوكية الكوردي ونوعية الأنشطة التي يقوم بها، وسبب ذلك: والكورد فرسان شجعان لكنهم يجهلون أصول الفروسية، إذ يندفعون بخيلهم على أية أرض وبأية سرعة كانت، وهم يستديرون وينعطفون بخيلهم دون رحمة أو شفقة. وهم يقومون بكل هذه الحركات بخشونة، وبقوة وبالالتصاق على ظهور الخيل وحسب، وهم لا يحسنون معرفة نسل الجواد المعرفة الجيدة. وإن خيولهم جميعها حتى العربية منها، تصاب بعد حين بالعاهات وتمسي كذلك جفولة شرسة. ص 299...

أي إننا في الحالتين، وككرد، نتساءل فيما بيننا وأنفسنا ما إذا كنا هكذا أم لا، لأن ذلك مرتبط بطبيعة العمل، والبيئة والظروف القائمة الخاصة بكل جهة، إلى جانب أن ليس كل ما يردِ من الآخر نقدياً، يُتحفَّظ عليه .

ولعل الذي يصرّح به، أو يعترف به فيما يشبه نهاية واقع رحلته، قد يدغدغ مشاعر كل كوردي، أنّا كان أو تواجَد، سوى أن عليه ألا يتسرع في التهليل، ويبادر إلى تكرار قوله، بقدر ما يكون المسموع محفّزاً على تفعيل القيمة المثلى في المسلك الذاتي وعلى مستوى الجماعة التي ينتمي إليها: وإنني أبارح كوردستان بأسف لا حد له، فما كنت أتوقع أن أجد فيها أطيب الناس الذين لاقيتهم في لاشرق كله. فقد عقدت الصداقة فيها، وعوملت بإخلاص متناهٍ أينما حللت، وبلطف وبضيافة لا حد لهما، وأخشى أنني سوف لا أنتظر مثل هذه المعاملة خلال سياحتي المضنية، ولسوف تبقى هذه الذكريات عالقة في قرارة نفسي ما حييث. ص306.....

ولعل الذي ورد ذكره من شذرات لزوجته، وهو ملحق ثالث، أي: معلومات مستقاة من الأهلين عن الجزيرة والبلاد المجاورة لها، ما يوسّع حدود رؤيتنا لكلماته، وأن الرجل قد أجرى لقاءاته مع نوعيات مختلفة من الكورد بالنسبة للجهات التي يقيمون فيها، وضمناً: كرد الجزيرة، مع أخْذ العلم بأن مدلول «الجزيرة، ليس كما هو الآن، وقد زاد توسعاً، وتضاعفت أعداد الكورد كثيراً، سوى أن تسمية الأمكنة تقرّبنا من أن كرد اليوم، هم في الاعتبار الأغلب أحفاد كرد الأمس: هناك قسمان ضمن منطقة حكومة الجزيرة وهما «البوهتانيون» أو «البوتانيون» و«الآشيتيون». و«الآشيتيون» يقطنون بوجه عام السهول جوار نصيبين وجبل آغا- جيم فارسية- ونظراً لما أصاب اللحكومة من وهن مؤخراً

فقد أصبحوا أقوياء أشداء المراس.ص 399...، وهذا التقريظ، أو ما يرادفه، يحتفظ بقيمة «الدَّين» الذي يجب استيفاؤه أو الإخلاص له، من ناحية التصرف على أنهم جديرون بأن يكونوا موضع ثقة الغير، ولا شأن لهم باللصوصية التي يحمَّلون بها هنا وهناك، لأن المهم هو كيفية الانتقال من رتبة إلى رتبة أعلى منها)[1].

في مثال الرحالة الهولندي الأحدث من بين الرحالة الأجانب: الغربيين ماليبارد، أي في خمسينيات القرن الماضي، مشهد مركَّب من هذا القبيل، وهو من حيث المحتوى، يعلمنا بمدى اهتمام الآخر بهم، وأن هناك اختباراً يومياً لسلوكيات تقيَّم في ذهنه لاحقاً.

إن سؤاله الموجه إلى مسئول كوردي، والجواب الذي تلقَّاه منه يمُثّل إشارة مبدئية إلى يقظة هذا المسئول، وربما أي كان، لأنه يعلم أن ثمة ما يشده إلى الثابت في الموقف: أن يكون المرء كوردياً، دونما سؤال عن الانتماء الفئوي أو الجهوي، وفي الفترة المذكورة والعصيبة (ولقد سألت أحد رؤساء الأكراد مرة، فيما إذا كانوا يجرأون أن يعبروا الحدود العراقية إلى إيران لرعي ماشيتهم فكان جوابه، وهو يتكلم بلهجة الواثق من نفسه، إن الأكراد لا يعرفون من حدود الأراضي شيئاً غير الحدود التي رسمها الله في أرضه، وهي السلاسل الجبلية، التي لا يمكن الصعود إليها، أو المياه التي تتدافع من الجبال، فلا يمكن اقتحامها. والكوردي الذي ولد وعاش في المناطق الجبلية، لا تصده هذه العقبات، وقد يحاول اجتيازها.

(1) رحلة ريج المقيم البريطاني في العراق عام 1820 إلى بغداد- كوردستان- إيران، تأليف كلوديوس جيمس ريج، ممثل شركة الهند الشرقية، والمقيم البريطاني في بغداد في أوائل القرن التاسع عشر، ترجمة: اللواء بهاءالدين نوري، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2008، طبعته أرملته عام 1838، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

ص62... وربما كان الذي أثيرَ، فقرة تخص عالم كل من الحمار والأهوال التي يعيشها والهوان الذي يتعرض له ورثاءهما ص 133، ما يبقينا في مجتمع ريفي، ويعرّفنا بطبيعة العمل العضلي والأثقال التي ترهق الحيوان، وفي الوقت ذاته، ما يذكّر بمأساة المقيم ذاته عملياً، ومن هنا كان هذا التفريق الذي يُسمّي البيئة والظروف التي تعنيها أو تعيشها على مستوى الأعمال والقيّمين عليها: يطلق الناس في أوربا كلمة الجمل على من يشتمونه بينما في الشرق، رمز الشرف.ص135...ليكون الذي أسلس القياد لقلمه جانب الرثاء والمديح في آن، حيث إن وراء هذا السحر الطبيعي والثراء الطبيعي، يتربع البؤس على عرش لا يجارى في جبروته مقابل متطلبات العيش المحدودة: كوردستان بلاد السحر والجمال، تستهوي النفوس فتلهمها الشعر والخيال، وتنثر فيها التلول والوديان، فتزيل مناظرها السأم والملل عن أعين العراقيين الذين أتعبتهم رؤى السهول وامتدادات الصحارى فيما بين النهرين، وتحيط بها الجبال الشاهقة، فتغطي قممها الثلوج وتتراكم عليها، حتى لكأنها تناطح آفاق السحاب، وتتبثُ بين ربوعها البرك والأنهر والنهيرات..ص215...وليعيدنا من جهته إلى نظيره الانكليزي، أو أوربيّه، في الموقف الشخصي مما جرى، وهو موقف لا بد أنه ينتقل بتأثيره إلى بني جلدته من الهولنديين فالأوربيين بالمقابل، وهذا إطراء تاريخي: إني لأحتفظ للأكراد بأحسن الذكريات وأطيبها وستبقى عالقة في ذاكرتي صور هذه البلاد التي هي موطن الإغراء والسحر وصور شعبها الأبي الذي أعجبني بكرم الضيافة وحسن الوفادة. ص219 .)[1].

(1) ماليبارد«صحفي هولندي»: نواعير الفرات أو بين العرب والأكراد، ترجمة: حسين كبّة،مطبعة الرابطة، بغداد، 1957، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز .

وربما كان الإصغاء إلى صوت الرحالة والدبلوماسي والسياسي البريطاني الشهير مارك سايكس «1879–1919»، ما يبرز أهمية هذا الموضوع، أعني منطقة الجزيرة التي حرّكت سياسات كثيرة، وأثارت كماً هائلاً من الخلافات لم تزل قائمة حتى اللحظة، لا أدل على مكانة سايكس الكبيرة من قوله، وهو ينير عالم كتابه عن «القبائل الكوردية في الامبراطورية العثمانية»، قائلاً (إن المادة التي جمعت في الصفحات التالية هي حصيلة قطع مسافة 7500ميل على ظهر حصان، ومحادثات لا حصر لها مع رجال الشرطة، وسائقي بغال وملالي، وشيوخ قبائل، ورعاة أغنام، ومتعاملين بالخيل، وسعاة بريد وأناس آخرين مؤهلين لإعطاء معلومات أصيلة)[1].

هذا الكم اللافت من الذين أوردهم في مستهل كتابه، يعني تأكيد أهمية الكم المعلوماتي عن القبائل الكوردية، ودون أن نلغي رؤيته وتقديره لما كان يسمعه، أي ما يكون هؤلاء الأشخاص بالضبط، وهو سياسي داهية، وعلينا أن نكون يقظين إزاء أي معلومة لها علاقة بما نحن عليه سياسياً واجتماعياً وثقافياً، وفي المنحى الاثنوغرافي كذلك، وفي رحلاته يتأكد لنا أكثر [2].

في بنية هذه الرحلات، ثمة الكثير على الصعيد الجغرافي «إنه هنا

---

(1) سايكس، مارك: القبائل الكوردية في الامبراطورية العثمانية، ترجمة: أ. د. خليل علي مراد، تقديم ومراجعة وتعليق: أ.د. عبدالفتاح علي بوتاني، دار الزمان، دمشق، ط1، 2007، ص 27.

(2) بصدد رحلات مارك سايكس، أنوّه إلى أنها وصلتني من الصديق الناشر سراج عثمان صاحب دار«الزمان» المعروفة، دون ذكر المترجم، أي وهي عبارة عن مخطوط، إلى جانب فقدان الدقة في العديد من الأسماء، وقد حاولت ضبطها، وهي غنية بمعلوماتها حقاً، وهنا أشكر الصديق سراج عثمان على هذا المخطوط، لأهميته في توسيع حدود البحث وتعميقه كذلك.

مسّاح أراض»، وهو مسح ليس لخدمة مؤسسة محلية، وإنما استعمارية، ولها تاريخ عريق في هذا المضمار، وعلى المستوى الاجتماعي والقيمي والوصفي، وهو يلتقي بأكراد مختلفين، وفي أمكنة مختلفة، بقدر ما يكون قوله متحولاً تبعاً للجهات، وهذا ما ينبغي التنبه إليه وبمزيد من الدقة والمرونة أيضاً.

ومن باب الاستدراك، فقد كان في الإمكان نشر بعض مما يتعلق بالجزيرة المكان والحدود، سوى أنني ارتأيت تأجيل هذه الفقرة بحيث تتدرج في نطاق تناولي له، لبلورة فكرة أشمل عنه.

أما بالنسبة للجزيرة فنقرأ (إن اسم الجزيرة أو شبه الجزيرة يُشتق من حقيقة أن المنطقة موضوع الدراسة محاطة ومنعزلة بواسطة نهرين كبيرين هما نهرا دجلة والفرات.

وتخص الأرض الواقعة بينهما، وتعرف بهذا الاسم.

والمظاهر الطبيعية العامة للجزيرة بسيطة للغاية، ومن الشمال توجد سلسلة متصلة نوعًا ما من الجبال ممتدة في خط غير منقطع من جزيرة ابن عمر حتى المنحدرات الغربية في Karaja Dagh قره داغ – جبل يعتبر قمة موحدة وهائلة لكن الخرائط الحديثة قسمته لأجزاء منفصلة عديدة – ووراء المنحدرات الغربية في قره داغ هناك شق في هذه المرتفعات وهو مجرد هبوط في ارتفاع التضاريس من الجنوب للشمال، وسرعان ما يستقر في التلال والجبال الوعرة التي تمتد من Urfa أورفا إلى BIRAJIK بيره جيك، وسلسلة من التلال الريفية تطل على منخفضات الجزيرة تقريبًا بطول الساحل القاري، وإطلاله على المحيط.

وفي بعض الأماكن كما بين ماردين وجزيرة ابن عمر، فإن الفاصل قاطع وبارز، والسهول الضخمة تمتد حتى قاع المرتفعات وهي على

مساحة 10 أو 12 ميل تشير إلى إمكانية مشابهة خط غير منقطع من الشقوق الجبلية والمنحدرات المرتفعة لسلسلة قره داغ على الجانب الآخر، تندمج تدريجيًا من الأراضي المنخفضة في شكل جزيرة عظيمة، وتذكرنا بمناظر سانت فنسنت.

والامتداد الغربي للسلسلة كثير التقطع خلال التعرجات والخلجان والشقوق، ومظهره غير منتظم.

والمظهر الثاني المهم في الجزيرة هو سلسلة سنجار وجبل عبد العزيز، وهما جبلان يمتدان لحوالي 125 ميل طولاً، وتوحدهما كسلاسل يجعلهما يمثلان حائط نادر التكوين، ولا يزيد ارتفاعهما عن عشرة أميال، كما لا توجد بهما قمم مدببة أو حادة، ورغم أن قممهما تبدو ذات بروزات غير ملحوظة، لكن الانطباع العام أمام الناظر يشبه قطعة أرض شاسعة أو شريحة ذات أبعاد هائلة.

وننتقل الآن إلى سلسلة الأنهار، إن كل من دجلة والفرات بهما ظاهرة مشتركة، ففي كليهما نجد أن الروافد تصل لهما من ضفتهما اليسرى، وبالتالي، فإن الجزيرة لا تساهم بشي في دجلة وبكل شيء في الفرات.

والمياه الداخلية في الجزيرة يمكن تقسيمها إلى قسمين ؛ الأول: يتدفق من اتجاه أورفا، وفي النهاية عند بليخ Belikh يمر بالفرات عند الرقة Rakka، والثاني: هو نهر خابور الأكبر Khabur، بمختلف روافده، والتي تنشأ عند قاع مرتفعات قره داغ وبطول تلال Mardin ماردين، ونهر البليخ Belikh

هو مجرى مائي فريد للغاية، وحيث إنه يطل على مدينتين كبيرتين مثل أورفا و حلب، فمن الغريب أنه لم يستكشف حتى الآن، إنه مجرى مائي عميق وطبيعي، عرضه حوالي 30 قدم وعمقه حوالي 8

أقدام ومجراه معتدل، وذو ضفاف إسفنجية لينة، وهو ينشأ بجوار حرّان Harran، حيث يوجد عدد كبير من الينابيع، لكن مصدره الرئيسي للمياه هو عين العروس Ain el Arus وهو ينبوع وبركة تقع بين التلال المنخفضة المنحدرة، وعين العروس هي منطقة مقدسة شهيرة، وهي الموقع الأسطوري لزواج وزفاف النبي إبراهيم، وفي وسط البركة هناك ينبوع غزير المياه، يمتلئ بكمية وافرة من سمك الشبوط وسلاحف المياه العذبة، وهذه الكائنات إلى جانب فراخ المياه التي تملأ المكان تعتبر مقدسة وأليفة إلى حد ما، وينصح الشخص الذي يرغب في طقوس نادرة أن يصلي في مسجد عين العروس، ويقدم هدية للشيخ صالح Shaykh Saleh. واستعبدوا البدو الباقين. ص18).

تلك هي نظرة بانورامية، لا بد أنها كانت حصيلة متابعة وتدقيق، كما هو مغزى المسافات الطويلة التي قطعها لهذا الغرض: أي بغية تقديم تقرير أفضل لإدارته، حيث التركيز على جغرافية المنطقة ومتميزاتها، ومن يقيمون فيها عرباً وكرداً في الفترة الزمنية تلك.

ولدينا مسح سكاني هذه المرَّة (والآن نناقش الوضع الحالي للجزيرة، إنها لا تزال أرض حدودية بين الشمال والجنوب بين عنصرين من السكان أولهما العرب، والثاني: الأكراد، وفي جبال درسيم Dersim سوف تجد الأكراد الأصليين الموحدين، وفي الصحراء تجد البدو من أعلى الأنساب وأنقى الأجناس، ولكن بين هذين الموضعين سوف تجد أنواعًا كثيرة من الشعوب المختلفة، ومجموعة قبائل وضعها العرقي محير للغاية وخصوصًا مع المسيحيين اليعقوبيين في Tur Abdin طور عابدين وعبدة الشيطان في سنجار؛ لأنه نظرًا لنظام الحكومة في التجمعات الدينية والطوائف والملل لدينا موقف شديد التعقيد والاختلاط.

إن القسمين الكبيرين هما في الحقيقة العرب، والأكراد، والعرب يسيطرون في الجنوب والأكراد في الشمال، وطبائع هذه الشعوب متضادة بشكل جذري، والعربي الأصلي هو كائن غريب حقًا، وعقله معقد ومليء بالثقافة، وبالضرورة ينجذب للشعر والمناظرة المنطقية والبلاغية، والتمثيل الكلامي، ولديه نظرة واسعة للأمور في كل المواضيع، ويمكن مناقشتها، ونطاق خبراته واسعة، ولكن عند تناول أي موضوع مادي يبدو شكله ساخرًا كمهرج، وهو يكره العمل ويبغضه، وقدرته على الجدال تزوده بالأعذار، وهو يصرح بأن العمل مهين، ويقلل قدره، وبالتالي فهو يتهرب من كونه غير كفء وكسول وعاجز.ص28).

أما عن الصفات التي ألصقها بالعرب فلا بد أن تحال إلى ما هو مكاني قبل كل شيء، أي كانوا رحلاً، أو يعتمدون على الرعي، وتلك الصفات ليست بحديثة العهد إنما قديمة .

وبالنسبة لكتابته عن الكورد، فثمة تنوع في الأمكنة والأوصاف، إنما ما يجب التنبُّه إليه هو مدى الانتماء القبلي للكرد، وكيف أن العلاقات تقيَّم ضمن «مؤسسة» القبيلة، إن جاز التعبير، وما فيها من «سياسة» أعراف وتقاليد (ونتحول الآن إلى الأكراد، وهم شعب صعب فهْمه، يحتاج تاريخهم إلى التدوين، وحتى توزيعهم فهو غير معروف حالياً بما يكفي. وبخصوص توزيعهم العام على الإمبراطورية العثمانية، واختلافاتهم العرقية، يجب إحالتكم إلى المذكرة التي ألحقتها بهذا البحث، والآراء التي أذكرها الآن تشير فقط لهؤلاء الأكراد المقيمين بالمناطق موضوع المناقشة حالياً، ولا تشمل أكراد الأناضول، و Pagans الوثنيين وشيعة Dersim درسيم، و Zazas الزازا شمال Diarbekir ديار بكر، وأكرادZilan الزيلان شمال بحيرة Van فان و Kizilbash القيزل باش بين Erzerum أرضروم و Erzinjan أرزنجان وأكراد البابا

على حدود فارس الجنوبية، وفرع Kochkiri الكوتشكيري وغيرهم في الإمبراطورية.

والأكراد في المنطقة موضوع الدراسة من أربع فئات منفصلة نسبيًا :

هؤلاء الذين يقيمون على المنحدرات الجنوبية في (قره داغ) تابعون لاتحاد الميلي.

الزاز و Karagech الكاراجيتش الذين يسكنون الإقليم حول Severek سيفريك، ويغطون السهول بين ديار بكر، و Tur Abdin طور عابدين، والشعوب المختلطة لطور عابدين، واليزيديين من سينجار.

وهناك اختلاف جذري بين العربي والكوردي، أن الكوردي الأصلي من أبسط وألين الأشخاص في العالم باستثناء المسائل المادية، واحترامه للقارئ والكاتب عظيم. وطبيعته مضادة للتأمل الفلسفي أو ما شابه، ويجد صعوبة شديدة في الدخول في مناقشة فكرية، لكن حبه الفطري البدائي للحقائق العلمية والماديات ذو طبيعة مباشرة، فهو لديه ما أسميه (نوع من العقلية الغربية) ومع أنها غير متطورة بخلاف النمط الشرقي.

وكمثال، ففي طريقي للمنزل، أتيحت لي فرصة جيدة أن أقرأ Puck of pokes hill، ولفتت نظري زوجتي للتشابه بين طبيعة الفارس القديم وبين عدة زعماء أكراد نعرفهم، والشبه حقاً غير عادي. والأكراد عمومًا صرحاء وصامتين، هادئين وساذجين لحد ما، ولا يقدرون على التزييف أو الخداع، وإذا ارتكبوا خطأ – وهذا يتكرر – فهم يعترفون به بكل بساطة ووضوح وصراحة.

لقد سألت قائد بغال كان معي (هل قتلت سابقاً) فأجاب (نعم ستة عشر على طريق khazat خازات حينما كنت بالصحراء تبعاً للجيش) مع

أنه كان مخلصاً أميناً، وقال ذلك مباشرة وبثبات، وسألت (هل كنت لصاً) فأجاب: (نعم، ولكن الحمد لله الآن فأنا متزوج وسائق للبغال).

وإحدى الصفات الصامتة في الكوردي هي الكرم في الأموال والضيافة الحميمية، وهي حقيقة بدون تفاخر كما عند العرب، ويقدم للضيف أفضل ما هو موجود، سواء كان غنياً أو فقيراً، دون انتظار مقابل. والمثال التالي يوضح الشعور العام بخصوص المقابل (مع الخادمين خصوصاً).

لقد كنا مسافرين خلال أحد الأقاليم وسط إحدى القبائل الداخلة في الحرب مع الحكومة، وتوقفنا لتناول الغذاء في قرية فقيرة، وأصر الزعيم على أن نشاركه الطعام، وطلب من الأهالي تقديم الأشياء الجيدة، وبعد الطعام أعطيت بعض القائمين بالخدمة نقوداً، لكن المستضيف جذب النقود سريعاً من يد الرجل وألقاها وداس عليها بقدمه وهو في حالة ثورة.

لكن هذا الذوق الرفيع يتحقق فقط عند حياة الناس في ظل زعيم قبيلة. وحينما يعملون كفلاحين عاديين يأخذون النقود، ويسعون وراءها. لكنهم لا يلحون في الطلب بفظاظة العرب، أو مسلمي الأناضول واندفاعهم.

ومن طبائع الكوردي خجله الغريب من أصله، فالآغا الكوردي يحاول إقناعك بأنه من أصل عربي.

وإذا ارتكب جريمة فهو يقول: «إنني مجرد كوردي ولا أعرف أفضل من ذلك». وإذا سألته سؤالاً دينيًا يجيب: «إنني كالحيوان، ولا أعرف شيئاً».

والأكراد يتميزون بالطيش في مخالفة قوانين الحرب المتعارف عليها، وسفير العدو لديهم لا يكون معصوم الدم.

وبخلاف بعض الاستثناءات فالأكراد مجتهدون للغاية، ويدركون أهمية التقدم المادي، وخيامهم مريحة وجيدة التكوين، ويبنون بيوتًا جيدة.

والكوردي يعتاد الاعتماد على المسيحي ليقوم بالعمل اليدوي له. وإذا لم يوجد، يقوم به الكوردي أفضل منه، وهناك عادة كوردية أخرى تصف فضائلهم، وهي معاملتهم للنساء، فهم لا يلبسونهم الحجاب، ولا يفرضون عليهن العمل اليدوي الشاق.

ونساؤهم جيدات الأزياء ولديهن حرية السفر والرد على أزواجهن، ويعبرن عن آرائهن في الأمور العامة بصوت مرتفع. ص37).

ثمة مراتب في التقييم، وعلينا التعامل معها بحذر مجدداً، وعلى سبيل المثال، لا بد من السؤال عن حقيقة القائل بأنه «كالحيوان ، ولا يعرف شيئاً»، وقبله، من قال عن أنه من «أصل عربي» وهو آغا كوردي، وسواهما، بأنه «مجرد كوردي ..»، فدارس التاريخ الكوردي، وما أكثر ما هو مدوَّن من قبل الآخرين، يتلمس مثل هذه المفارقات، لأسباب لها صلة بالظروف التي كان يعيشها الكورد، وحسب الصراعات القائمة، وكذلك النزاعات الجانبية الكوردية بالذات، وكيف يمكن لكوردي أن يقول عن نفسه بأنه «حيوان»، و«سر» هذه «الحيونة».

وفي انتظارنا المزيد (وبطول المنحدرات الشمالية في قره داغ لدينا مجموعة من الأكراد القبليين وغير القبليين من أدنى الفئات والأوصاف، ومن البدو وأشباه البدو، وجميعهم جبناء بطريقة حقيرة، ويتصفون بالحقارة والقسوة، ويظهر عليهم الكسل، وربما أن الرحالة يستنتج من هؤلاء الأهالي صفات ذميمة عن كل الجنس، مع أن هناك استثناء للقاعدة هو الأكراد شمال بحيرة فان Van وغيرهم. وبين أورفا وبيريجي، نجد شعب مختلف للغاية.

وقبائل ديناردیه Dinardieh وبارازیه Barazich، وهم سياسيون متمردون أو محاربون شجعان، أو أصحاب قطعان أثرياء ومزارعين مكافحين، وبارازيه وديناريه، رغم اتخاذهما للزي العربي في أغلب الحالات، فهم أكراد خالصون، وهم مثل ممتاز لخامة الكوردي النافعة اقتصاديًا، الممكن استغلالها عند توجيه طاقاته في الاتجاه الصحيح، وهناك الآن حوالي 360 قرية عامرة في أنحاء Seruj سيروج، ويسكنها الأهالي الذين كانوا منذ فترة قريبة يسكنون الخيام.

وفي ضواحي حران هناك قرى عديدة من أكراد وعرب مختلطين، ولكن حيث لا يوجد لهم تنظيم قبلي أو زعماء، فإن مصيرهم سيء الحظ، ولكن رغم كونهم غير محاربين مثل العرب الفلاحين، فهم أكثر اجتهاداً وكفاحاً بكثير.

نأتي الآن لمنحدرات «قره داغ»الجنوبية. إن هذا القسم من البلاد بالكامل في ايدي إبراهيم باشا، من كبار نبلاء وزعماء الحميدية Hamidieh.

إن إبراهيم باشا بلا شك هو أهم الأشخاص في الجزيرة، وحينما بدأ حياته في سن عشر سنوات كان والده سجينًا في ديار بكر، وكان هو لاجئًا مفلساً في مصر، وهو الآن يبرز كقائد لواء في الجيش التركي، ورئيس 14 ألف من الرماة والفرسان، وقائد اثنين وعشرين قبيلة منفصلة، وزعيم أكراد الميلي Milli، وأم إبراهيم باشا كانت عربية من أشرف الأصول، وأبوه زعيم كوردي شهير.

وفي شخص إبراهيم تتحقق خصائص جنس كل من الأب والأم، وهي القدرات البناءة والعملية الكوردية، إلى جانب المواهب العقلية والإنسانية الخاصة بالعرب، وإبراهيم له أعداء كثيرون، فمنصبه

يستدعي أن يكون في حرب دائمة مع جيرانه، والعرب والأكراد خارج اتحاده يرغبون في قتله، لكنه لم يتهم بأي عمل مشين أو فاضح.

ورغم أنه شخصيًا لم يكن متحيزًا لصالح الأرمن، لكنه لم يتردد في أن يهدد بتدمير سوفيريك Suverek إذا تم قتلهم هناك، وهكذا أنقذ مئات من الأرواح. وحينما وصلت الأمور لقمة السوء في ديار بكر وأورفا، فقد قام بحماية الآلاف في مقر قيادته وقدم لهم الغذاء مجانًا في فيرانشهر Veranshehr لمدة شهرين.

وحينما خفت الأزمات أعطاهم الخيار في البقاء بأراضي يزرعونها في سلام، ولا يمكن أن يحقد عليه أحد بسبب الثروة التي جمعها، وهو يقول إن الرسوم التي يفرضها على المستوطنين في بلاده معقولة، ويثبت ذلك أن الأرمن المهاجرين يتزايدون في ويرانشهر كل عام. ص40.).

إنها مناطق مختلفة، لكل منها ما يميزها عن سواها: بيئة، وظروفاً ومجتمعاً وقيّمين عليها. وفي مثال ابراهيم باشا الملي، الأشهر من أن يعرَّف ما يستدعي الكثير من مرونة التعامل والتفكير، وهو الذي تعامل مع قوى محلية وعلى أعلى مستوى «السلطان العثماني»، وحتى بالنسبة للذين استلموا السلطة في«تركيا الحديثة»، عدا عن طريقة تعامله مع من كانوا ينتمون إلى جهات أجنبية، وهم ساسة أو شخصيات متعددة المهام.

وما له علاقة بالجانب الاجتماعي والسياسي والبيئي (وأظن أن أهل طور عابدين جميعهم من جنس واحد وهو «الكوردي»، وينقسم هؤلاء الناس إلى عدة قبائل، والبعض يتكلم الكوردية، وآخرون يتكلمون لهجة عربية ركيكة.ص41)، وكذلك في مشهد آخر (وبين «طور عابدين»وجزيرة بن عمر Ibn Omar، نجد أراضي تعسكر أكراد الميران Miran، وهي قبيلة حصلت على أهمية مؤخراً لكنها تضعف وتفقد سلطتها الآن. ص42).

وعن نظرته إلى الكورد اليزيديين وطابعها الأخلاقي وليس الوصفي، أو المختلط (ولنصف الآن سكان الجنوب الشرقي، وهم عبدة الشيطان في سينجار Sinjar، إن هذا الشعب الفريد - الذي تميزت بلقائه – لا أعرف عنه الكثير، والسبب سيتضح حينما أقرأ عليكم مذكراتي:

وفي الصباح انطلقنا ثانية نحو سينجار، ووصلنا بعد أربعة ساعات ركوب، قاع ممر سيكينيه Sikeniya ، وأنا على علم بأن اليزيديين الذين يسكنون الجبال هم شعب ماكر، وأنهم يتألمون تحت الاضطهاد الشديد ... إلخ.

وهم شجعان، ومهذبون ومجتهدون ويحبون الحرية بالفطرة، ويمتلكون جميع الفضائل الأخرى الممكنة، لكن هذا كلام نظري لم أتأكد منه عملياً . ص43).

وإلى جانب تتبع أنشطة اقتصادية واجتماعية(والآن في الجزيرة أصبح لدينا تقريباً النواة للشعب الزراعي بطول ضفاف نهري البليخ وخوبر، في قبائل الفلاحين العرب، وبمجرد تأمينهم من الغارات وامتلاكهم أسواق لمنتجاتهم، سيبدأون في العمل الجاد وسوف يعاونهم باستمرار المهاجرون الأكراد الذين يزدهرون الآن، ولكن بدرجة قليلة في وجود زراعي محدود بين جبال شمال أورفا . ص 49.).

إلى جانب تمايزات قبلية أخرى (وجدير بالذكر أنه يوجد أربعة عشر ألف من أكراد المللي والكيكيه Kikieh Kurds على منحدرات قره داغ لديهم استعداد الاستقرار بطول ضفاف نهر جغجغ The Jah Jah، والمداخل العليا لنهر الخابور عند مجيء السكة الحديد، وبخصوص ذلك لدي مقولة من زعيم الأغا لأكراد الكيكيه.. ص50.)....الخ.

ثمة الكثير من «الحقائق» التي سمّاها أحد عرّابي «سايكس- بيكو» ومهندسها طبعاً، ولا بد أن هناك تداخلاً بين البنية الفكرية

والإيديولوجية لمن كان طرفاً فاعلاً في وضع الاتفاقية هذه، وما ترتَّب عليها من تقسيم للمنطقة، إنما كوردستان بصورة كارثية، وما جاء لاحقاً، من سيطرة استعمارية، وللانكليز دور كبير في هذه اللعبة، والكورد كانوا مضحًّى بهم، دون نسيان شعوب أخرى، كانت بدورها ضحايا سياسات دولية وإقليمية ومحلية، كما في حال الأرمن والمجازر الجماعية المنفَّذة فيهم قبل بدء الحرب العالمية الأولى وأثناءها، والسريان والآشور...الخ، وهذا من شأنه منحنا المزيد من الإضاءات المعمّقة لخاصية قوى الرحالة وخلفياتها، وما كان مؤثِّراً في تشكيل صورة نمطية للكوردي، غالباً، وهي تختزل شخصيته على المستوى الاجتماعي ومن ثم السياسي، لحظة التذكير بكوردستان، وما كانت الجزيرة عينها من ناحية المعطيات السياسية الاستراتيجية إجمالاً.

كما رأينا، وفي مقاربة نقدية أخرى، نتلمس خاصية كتابية لا تخلو من التعميم في حالات كثيرة، ودون تدقيق، وهو يتصرف كوصافة، رغم أنه رحالة سياسي، مثلاً: ما الذي يخفيه قول: أنا من أصل عربي، أو أنا مجرد كوردي...الخ»، دونما أي اعتبار للخلفية التاريخية، بقدر ما أن معلومة كهذه تهمه ولإدارة حكومته للتأثير على الناس، والتصرف تبعاً للمصلحة التي تبتغيها حكومته هذه، وما في ذلك من تصرف بالمرئيات.

ولعل في انتقالنا إلى عالم أدب امرأة ذائعة الصيت في مضمار كتابة الرواية البوليسية، ما يضفي على الكتاب في عمومه صفة الإمتاع والمؤانسة والتعادلية بالمقابل، أي أجاثا كريستي «1890- 1976»، ولا بد أنها في غنى عن التعريف، فالذي يسمّيها هو كتابها الرحلاتي، وهي برفقة زوجها الثاني، الآثاري المعروف ماكس مالوان «1904- 1978»، إذ إن الذي ضمَّنته كتاب رحلتها وهي برفقة زوجها، أكثر من مجرد

انطباع، إنها رؤية لها طابع استقصائي، حضاري، اجتماعي، وسيكولوجي واثنوغرافي، وهو وصف يليق بها، يليق بثقافتها ذات البصيرة العالية!

(كريستي تتطرق إلى المناخ السائد في المنطقة، وما تحتاجه من ملابس، وهي بالطريقة هذه تشي بمعرفة مباشرة لهذا المناخ، والذين يعيشون تحت تأثيره: إن شراء الملابس للأجواء الحارة في فصل الخريف والشتاء يجلب متاعب حقيقية، ولكن ربما تفاءل المرء بأن ملابسه القديمة تسعفه وتفي بحاجته، وها قد حان الوقت كي نسبر حقيقة تفاؤلنا.ص17... وربما هناك ما يربط بين المناخ ومتغيراته والتحزيم، أي الاستعداد للقيام بأمر ما، وذلك في فصل التحزيم: للتحزيم أساليب واتجاهات ومدارس كما يكون للفكر طرائق ومدارس، فمن الناس من يحزم أمتعته قبل أسبوع أو أسبوعين، ومن الناس من يلقي في الحقيبة أشياء كثيرة قبل المغادرة بنصف ساعة اعتباطاً. ص23- استانبول. المدينة المدهشة، المخبلة، ما دمت فيها فلن تستطيع رؤيتها ولكنك تستطيع مشاهدتها فقط حين مغادرة الجانب الأوروبي من خلال البوسفور إلى الجانب الآسيوي. ص30...وفي وصفها لمناخات مختلفة ما يذكّرنا بقدرتها على التركيز، والإيجاز في المعنى وكثافته: بيروت، البحر الأزرق، الخليج المتعرج، شاطىء طويل من الجبال الزرقاء، الضبابية.ص35...وفي مشهد برّي هذه المرَّة: يخيل إلي أن فتنة تدمر تتجسد في انتصابها الرائع كقطعة من الزبدة الجميلة اليفاء بين الرمال الحارة.ص45..وما يمضي بنا إلى داخل سورية صحبة زوجها: كان ماكس فيما مضى يردد على مسامعي اسم سورية كثيراً ذاك الاسم المشوب لدي بالقدسية.ص51... ومن ثم الدخول في قلب الحدث الجغرافي: الطبيعي والسكاني وربما ما يتردد في أجواء المكان، في فصل الخابور والجغجغ: هذه الأيام الخريفية هي من أكثر الأيام التي عرفتها

مثالية تستفيق باكراً وحالما تبزغ الشمس نحتسي الشاي الساخن ونأكل بيضاً ثم نشرع في العمل في ذلك الوقت يكون الطقس بارداً فأرتدي كنزة صوفية واسعة ومعطفاً فضفاضاً .ص67.. وما يقرّبنا من الرقعة التاريخية، أو الموقع الأثري السالف ذكره، حيث الوصف تعبير عن تأثر بالمرئي، وربما أكثر من ذلك بالنسبة إليها كامرأة تتفاعل مع العالم الخارجي، بقدر ما تترجم حس النباهة البوليسية لديها: كانت لزيارتنا إلى تل حلف بهجة لا تضاهيها إلا مباهج حج المزارات المقدسة..إنها رقعة ساحرة وفاتنة وهذا هو نهر الخابور يحيط بسفح التل ويلتف حوله. ص 69...وكذلك: إن محاولة استكشاف جميع التلال واختبارها على طول الطريق والعودة إلى الحسكة في الليلة نفسها ضرب من المستحيل، لذلك قررنا أن نبيت في القامشلي وأن نعود في اليوم التالي. قال لنا الليوتنانت الفرنسي: إن فندقاً تتوفر فيه جميع وسائل الراحة ليس له وجود في القامشلي بل إن مبنى يستحق أن يدعى فندقاً في نظرهما غير موجود ، لكن رأي حمودي واريستيد مختلف، فهذا الفندق في نظرهما هو من الدرجة الأولى، وهو فندق أوربي وتوجد فيه أسرَّة. ص73... وما يمضي بنا إلى موقع أثري آخر، حيث يعرَف باسمه في المنطقة حتى الآن: الموجودات في شاغربازار جيدة، هنالك قربة، آبار للمياه..وفي القرب كثير من القرى، فيها أناس متعاطفون طيبون، نهابون، ولصوص... ص78... لا مندوحة من سبر الأغوار في التلال الثلاثة، لذلك شرعنا في الاختبار في تل موزان المجاور للقرية .. ص85... والتطرق إلى طبيعة الأيدي العاملة أو جنسياتهم، وهذه إشارة إلى المنطقة ومن يقيمون فيها، إنما دون نسيان ما كان يميزهم عن بعضهم بعضاً، وما يقرّبهم من بعهم بعضاً، وما هو أبعد من كل ذلك على مستوى المؤثرات الاجتماعية والثقافية والتربوية والتعليمية كذلك:

عمالنا زمر من العرب والأكراد والأرمن وهم يعملون بجد ونشاط وحيوية، غير أن عيبهم هو نزقهم وأمزجتهم الحادة، وسرعان ما يثورون ويهتاجون ويستفز بعضهم بعضاً، لذلك كانت الخصومات والمشاحنات لا تنقطع. كانت أمزجة جميع عمالنا نارية ولكي يثبتوا وجوده ويحيطوا أنفسهم بالهيبة والاعتبار كانوا يحملون الدى الكبيرة ويتأبطون الهراوات والقضبان الشائكة أو أنواعاً غريبة من العصي والعيدان، كانوا يتعاركون ويشتبكون في صراع ضار، إلى حدود التمزق إرباً أرباً... ص109... وما يخص أوصاف النساء الكورديات، وهو وصف انتروبولوجي في العمق: النساء الكورديات حسناوات ومرحات، يرتدين الحلل البراقة، بعضهن يعصبن رؤوسهن بمناديل صفراء برتقالية، أما ثيابهن فخضراء وأرجوانية وصفراء وهن فارعات الطول يمشين بقامات منتصبة ورؤوسهن شامخة من فوق أكتافهن مائلة إلى الخلف وتظهر عليهن مخايل الزهو والترفع والإباء. ولهن وجوه برونزية ووجنات حمراء وقسمات متسقة وعيون زرقاء على الأغلب.. أما الرجال الأكراد فيحملون ملامح شبيهة بملامح اللورد كتشنر المارشال الانكليزي.. ص114... وما يعمّق العلاقات القائمة ويضفي عليه تمايزات: في هذا الجزء من العالم تتساوى القرى الكوردية والبدوية عدداً، إنهم يعيشون في الحياة نفسها وينتمون إلى دين واحد، ولكن لن تخطىء في تمييز المرأة الكوردية عن المرأة البدوية. النساء البدويات هادئات، يؤثرن العزلة وحين تتحدث إليهن يدرن وجوههن ونظراتهن تتجنبك، ويرتدين الملابس الداكنة مشوبة بالخفر والخجل. لا تجد امرأة بدوية تأتي لتتحدث مع رجل، أما المرأة الكوردية فتجد نفسها مساوية للرجل أو أفضل منه، يخرجن من بيوتهن بحرية، يمازحن أي رجل، يمضين النهار في أنس ومرح إلى حدودهما القصوى، ولا يجدن حرجاً في أن

يستأسدن على أزواجهن . كان عمالنا الآتون من جرابلس الذي لم يألفوا الأكراد أو يخالطوه يصابون بصدمات صاعقة فيهتف معلناً : لم أصدق قط أ أسع أو أرى امرأة تخاطب زوجها بهذه الطريقة..حقاً. لا أدري ماذا أقول ؟. ص115... وحتى على مستوى الجنسانية القائمة في وسط دون آخر، بالنسبة للكرد، جهة العلاقة بين الرجل والمرأة: رجل يقول: نسوتي الكورديات يختبرنني هذا الصباح بمتعة صريحة واهتمام واضح ويتبادلن فيما بينهن كلمات الهزء والنقد اللاذع.ص115... وفي المنحى الديني وخلفياته الاعتقادية وفي تلك الفترة، أي في ثلاثينيات القرن الماضي، وهذا ما ينبغي التنبه إليه وفي منطقة كانت تتعرض لتأثيرات من هذا القبيل: رجل يزيدي لم يشرب الماء، لأنه قال: لا أستطيع شرب هذا الماء فقد متح من البئر التي طرح فيها ابن الشيخ خساً هذا الصباح. اليزيدي بحكم ديانته عليه أن لا يجري اسم الخس على لسانه، ولا يلمس أي شيء يخالطه الخس.. لأنه يعتقد أن الشيطان يسكنه.. ص143- تلي قانون «الشغب» الذي أصدره ماكس على العمال المحتشدين: يحظر الإدلاء بالأكاذيب على العمال اليزيديين ويمنع مضايقتهم واضطهادهم بأية وسيلة من الوسائل لأننا جميعاً هنا أخوة لا فرق بيننا .ص 143... وفي العودة إلى جانب تحرري لدى النساء الكورديات: النساء الكورديات لم يكن ليجدن حرجاً في التحدث إلى ماكس ووصف اعتلالهن له كي يصلن إلي. أما البدويات فكن يأتين إلي إلا حين أكون منفردة فكان مشهدنا تمثيلاً إيمائياً .ص 183... وفي العودة إلى ماض تليد، ولعلها ليست اعتباطية، إذ ربما أفصحت في واعيتها عن أن إقامة علاقة مع أهل المنطقة، يجب أن تغفل عن ماض تليد، وهي محاولة تفيد في تبين المفارقات، أو التفاوتات بين جماعة بشرية وأخرى، ومن جهة لأخرى، ومدى تأثير العامل السياسي

والاجتماعي في تعميق أو إبراز حدة التباينات: يسطيع المرء أن يكوّن لنفسه فكرة عن شاغر التي وجدت منذ خمسة آلاف سنة، ولا ريب أنها كانت مركزاً هاماً تمر بها القوافل الكثيرة وتربط بين «حران» و«حلف» ومنها تنطلق القوافل عبر جبل سنجار ودجلة ونينوا القديمة لقد كانت مركزاً في شبكة مواصلات كبيرة للتجارة.ص201...وعلى مستوى الرواتب، وكيفية تقدير المردود أو تقدير جهد العامل عملياً: في دفع الرواتب تتفاوت الأجور فبعض الرجال يقبضون علاوات ضخمة وبعضهم لا يكاد يحصل على شيء. وبرغم كل ذلك يطلقون النكت الظريفة وحتى هؤلاء الذين فاتهم الحظ تراهم مرحين جذلين. اندفعت امرأة كوردية فارعة الطول إلى زوجه الذي كان يعدُّ المبلغ الذي قبضه:

هه.. ماذا أحرزت ؟ دعني أرى ذلك، ودون حيرة أو اضطراب تناولت كامل المبلغ وذهبت به. وكان رجلان عربيان مهذبان عليهما مظاهر النبل يشاهدان الموقف، فأدارا وجهيهما على استحياء وقد أذهلهم هذا الموقف الغريب من سلوك خال من الرجولة والأنوثة.

برزت المرأة الكوردية مرة أخرى من كوخها وهي توبخ وتقرع زوجها لأنه أهمل ربط الحمار ربطاً جيداً فتحرر من طوله وعقاله، قال رجل كوردي ضخم ووسيم وهو يتنهد في أسى: من ذا الذي يريد أن يكون زوجاً كوردياً ؟

هناك قول شائع: إن البدوي إذا تعرض لك في الصحراء وأراد أن يسلبك فإنه لن يقتلك. أما الكوردي فإذا استلبك بطش بك لمجرد الاستمتاع بذلك ولعل هيمنة الزوجة على الرجل في البيت تثير بأسه وعنفوانه خارج الدار وتجعله شرساً وارياً.ص 25...وفي موقع أثري آخر، قيمة كل من الحياة والموت في نظرة أهل المكان: عن تل براك والذين انهار عليهم الجرف بسبب خطأهم في تل براك. وماكس استفزه

من حاولوا سرقة زملائهم ممن ماتوا تحت الانهيار. وقول أجاثا :هؤلاء الناس لا يقيمون وزناً لحياتهم ولا يعيرونها أي اهتمام، إنهم أناس جاسئون قساة القلوب لقد كانوا يضحكون من الموت. وفي غمرة العمل هذا الصباح نسوا كل شيء وكان شيئاً لم يكن وأن أمراً رهيباً رهيباً لم يحل بساحة رفاقهم.ص273.. ومن ثم المقارنة بين تل براك وشاغر: لم يهيمن براك على عواطفي كما هيمن عليها شاغر فقرية براك تبعث في نفسي الكآبة والحزن. إنها نصف مهجورة وطيئة البيوت متداعية. والأرمنيون يبدون، بملابسهم الأوربية الرثة، على غاية من الشذوذ والنشاز من محيطهم، وتقتحم العين هيئتهم الزرية. ولا تجد فيها تلك المتعة من الفرح والمسرة، كما تجد كل ذلك في القرى العربية والكوردية. هنالك افتقدت النساء الكورديات، المتجولات المتمهلات في ساحة القرية.

تلك الزهرات المتألقة المرحة بأسنانهن البيضاء المشرقة، ووجوههن الباسمة الميئة، لقد كن رشيقات حبالى. ص 275.

ومن ثم ما يرتبط بمشاهد معاشة، في ضوء اللحظات الأخيرة من الزمن الممضي في المنطقة:إنني أتذكر الآن عامودة والنجار الذي صنع لي كرسياً، ووضع لي المغسلة أمام الباب.. ص286.. أتذكر النساء الكورديات في شاغر كزنابق مخططة، والشيخ الجليل بهيئته المهيبة ولحيته المخضبة بالحناء..ص286..ومن ثم تستعيد خيالياً ما عاشته» أغلقت أجفاني.. أستطيع أن أستنشق من حولي روائح الزهور العابقة وشذى الأرض الخصبة.. قلت لماكس «زوجها»: إني أفكر.. تلك هي أروع حياة يمكن للمرء أن يحياها . ص286 ...)[1].

(1) كريستي، أغاثا «مذكرات»: هكذا عشت في سورية «في شاغربازار وتل براك وتل أبيض»، ترجمة: توفيق الحسيني، دار الزمان، دمشق، ط1، 2007، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز .

كريستي الروائية، إنما كريستي الرحالة، إنما كريستي المنقّبة في الوجوه، في الهيئات، وحركات الأيدي، ونوعية التعامل بين الناس، ومن خلال انتماءاتهم ومواقعهم الاجتماعية، ولغاتهم، كريستي الاجتماعية على طريقتها، والوصافة بأسلوبها المختلفة، تضم بين جانحيها جملة أدوار تتمثلها جميعاً، ليتسنى لها القيام بدور مركَّب في المحصّلة، أي نقل ما عاشته روحاً وجسداً في رقعة جغرافية هائلة التنوع إلى سجّلها الذاتي، ومن ثم إلينا، وهي من حيث البنية الاعتبارية، لم تبخل بالكثير الذي كان يجب أن يُسمَّى، ويؤرشَف، ويتم التعرف إليه، وبالنسبة إلينا تحديداً، أي حيث تعيش المنطقة توترات رهيبة ومقلقة، وفي ضوء سياسات أقرب إلى ما هو تدميري لروح المكان ومن فيه، ولا بد أن الذين ساسوه ورتَّبوه وقيدوه تاريخياً لهم الوزر الأكبر في ذلك. إذ لا أوخم، ولا أكثر نفاذ أثر سلبي، من سياسات أحادية الطرف، تسيّد لغة على لغات، وتحرص على إبراز كل التنوع الذي تعرَف به المنطقة بلون واحد، لا أشد منه بأساً.

ذلك ما يضعنا في مشهد التعاطي الثقافي ونوعه على حلبة الجاري (إن تاريخ الثقافات يعرف بعض الحالات التي تكون فيها المعارف المتراكمة منذ أجيال عديدة خاضعة لنوع من المحرمات «تابو» التي لا تسمح بتثبيت هذه المعارف خطياً بل التعرض إليها شفهياً فقط.)[1].

قول اعتمد في الحد الأدنى من التقييم، أي السماح بما هو شفهي، فكيف يكون نوع التابو من جهة عنفه، إذا كان الشفهي مدرجاً في خانته ؟ لا بد أن يكون لدينا مناخ كارثي جرّاء ذلك.

---

(1) هارمان، هارالد: تريخ اللغات ومستقبلها «عالم بابلي»، ترجمة: سامي شمعون، مراجعة: محمد حرب فرزات، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والتراث، الدوحة، قطر، 2006، ص446.

أتراني مبالغاً وأنا أسمّي الكوردي فيما يعرف ويعرَّف به في مضمار تعرَّضه لضروب من التهميش، وحتى التضييق عليه، حتى على مستوى لساني «يومي»، باختزاله؟

لا أعتقدني مجانباً للصواب، وأنا أشير إلى «عالم» الجزيرة، وحالات الردة ومظاهرها الكثيرة التي عاشتها بعد فترة كريستي، وفي النصف الثاني من القرن الماضي وحتى الآن، في ضوء سياسات تختزل المختزل، أصبحت الجغرافيا ذاتها ضحية ممارساتها، أي ما يبقي اللصوصيات ذات الباع الطويل في الاستئثار بالمكان واحتكاره ماضياً وحاضراً، وقلب العلاقة استناداً إلى مأثرة القوة الضاربة، أي تحويل الضحية جلاداً، أو أكثر من كونهاً لصاً تاريخياً .

ماكس مالوان في مذكراته يتراءى رحالة على مستويين: كآثاري، عبر طبقات الأرض، وكرحالة في علاقاته مع من يتصل بهم، أو يعمل وإياهم، كاوبنهايم، مع فارق مميَّز، وهو أنه أقرب إلى الآثاري منه إلى الرحالة، وأن الذي ارتجله، أو أودعه مذكراته كان يترافق مع طبيعة مهنته كآثاري، سوى أن في ثنايا كتابته ما يشجّع على الإصغاء إلى صوته كرحالة مكان:

(ربما كان، ومن حيث العلاقة مع مفهوم البداية، وكيفية تحصيل المدخل الصحيح إلى العلم أو المعرفة بدقة أكثر، النظر فيما يقوله آثارينا، لما في قوله من إنارة لخاصيات المعرفة الكبرى: ولدت في لندن في السادس من شهر أيار عام 1904 في شقة في البرت مانشنز تطل على حديقة باترسي العامة. ص 11... وكذلك: قال عميد كليتنا بيرسي ماشن، ونحن طلبة في الصف الأول في قاعتنا المهيبة والجميلة: تعرفوا جيداً إلى هذه الأحجار. ص 25... وبالنسبة للاعتراف بجميل الآخر

علمياً: إنني مدين لجامعة اوكسفورد بالدرجة الأولى ليس بسبب أي إنجاز أكاديمي بل لتعرفي إلى أهمية التعلم الحقيقي وصحبة الكتب والمباني. ص 28... وما يتعلق بمجالات بحثية وتنقيبية له، كما في الموصل، وتحديد معنى الاسم: لعل الموصل صدى لـ«مسبيلا» ص 78، ومن ثم في الفصل السابع، عن شكربازار، ص123–138، كما في هذه المعلومات: الفصل السابع عن: شكر بازار، .. كان هذا الموقع نفسه موقعاً ملائماً ، إذ أنه في القامشلي على بعد أربعين كيلومتراً إلى الجنوب... خلال موسمنا الأول وفي أثناء تشييد دار لنا في الموقع استأجرنا مسكناً من الآجر الكبير الحجم غير المفخور ذا فناء واسع في العامودا قرب الحدود. كانت أغلبية السكان من المسيحيين وكان منزلنا المؤقت غير مريح في البداية... شهدنا في العامودة بعض الأحداث المثيرة. فقد وقعت في بعض الليالي غارات عبر الحدود التركية وحدث إطلاق نار عشوائي على نطاق واسع في الشوارع. وجرت محاولات لخطف النساء.. كانت هيأة البعثة في الموسم الأول تضمني وأجاثا وروبن مكارتني وريتشارد بارنيت وكان عدد العمال الذين استخدمناهم يصل تقريباً إلى مئة وأربعين . وكانوا خليطاً من العرب والأكراد مع عدد قليل من اليزيديين اللطيفين من جبل سنجار وبضعة مسيحيين. يضاف إلى ذلك أن بعض أفضل عمالنا كانوا أتراكاً تسللوا عبر الحدود ودخلوا البلاد على نحو غير مشروع، لكنهم كانوا أقوياء ومتحمسين للعمل، ولذا لم نتردد في تشغيلهم. كانت حركة التسلل واسعة عبر الحدود في كلا الاتجاهين، إلا أن ذلك لم يسبب قلقاً شديداً، ولو أن بعض المتسللين غير المحظوظين كانوا يتعرضون لإطلاق النار. والحق لم يكن سهلاً دائماً السيطرة على عمال قوميات مختلفة، إذ كانت تسمع

لغات عديدة في موقع التنقيب، ولكن رغم تعدد القوميات لم تعترض تقدمنا سوى عقبات قليلة.ص 124- في شكر بازار احتوت أقدم طبقة ، وهي تضم آثار جدران من الطين على عمق خمسة عشر متراً تحت السطح، على بقايا ما يعرف بفخار سامراء... في طبقة الاستيطان هذه التي تلت عصر سامراء عثرنا على ما لا يقل عن ست مستوطنات الواحدة فوق الأخرى من عصر حلف كان يمثل فترة طويلة كما تأيد فيما بعد في موقع يارم تبه في جبل سنجار..ص 125- يحتمل أن عصر حلف في شكر بازار دام فترة أطول بعض الشيء من الأماكن الأخرى لأنه لا توجد آثار في شكربازار للحضارة التالية المعروفة بالعبيد، ولكن عصر حلف انتهى هناك في خاتمة المطاف ..ص127 ... والفصل الثامن، عن: التنقيبات في تل براك، صص 139-182..وما يصله بعلاقته بمن حوله في محيط مهنته، وصلة الموصوف بمن يعيشون في جهة جغرافية أخرى، تأكيداً على التنوع المعرفي لديه: كان شيخنا الكوردي الفطن، شأنه شأن المستوطنين الأرمن في حوض نهر الخابور، تجسيداً حياً لصلة موغلة في القدم بالشمال. ص 131...والحديث عن بداية العلاقة مع الموقع الأثري الموسوم لاحقاً: شاهدت تل براك الكبير أول مرة في تشرين الثاني 1934. ص 139...وكيفية التهيئة قبل كل شيء:عندما وصلت أنا وأجاثا إلى براك سكنت أولاً في برج عال عند مدخل الخان.ص 141... وبالنسبة لبعض من سيرة الموقع: كانت براك معقلاً لمملكة أكد في حملاتها الشمالية على آسيا الوسطى. ولا شك أن الهدف الرئيس لهذه الحملات كان ضمان الحصول على خامات المعادن الثمينة التي توجد هناك ، علاوة على الحبوب من غربي سوريا . ص 146... وفي هذا السياق فيما يتعلق بمستجدات التاريخ وخاصية

الترجيح في ذلك: الذين دمروا قصر نرام- سين يرجح أنهم الكوتيون الذين كانت لهم مملكة قوية في جبال زاغروس تعد مسئولة أساساً عن انهيار الامبرطورية السرجونية. ص 147 ... ومن ثم التعريف بالشيخ الكوردي: الشيخ الكوردي أحمد، شيخ شكر بازار. ص 163.. والحديث المتعلق بالعزيزة على قلبه، وتلك التي منحته، كما يظهر الكثير مما كان يتمناه، أي : عن أجاثا في القسم الثالث » أجاثا 1930-1975، عمر زواجهما، صص211-251، في الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور أكملت أجاثا 85 كتاباً، أي بمعدل كتاب واحد لكل سنة من عمرها، وهو رقم خارق من حيث الانتاجية نادراً ما فاقه أحد. كيف نفسر هذه الظاهرة؟ إنها ناشئة عن حالة دائمة من الخيال الجامح. ص 223 ... وما تكون فاجعة خاتمة الكتاب: عندما وصلت إلى الصفحات القليلة الأخيرة من هذه المذكرات توفيت عزيزتي أجاثا بسلام وهدوء بينما كنت أدفع كرسيها ذي العجلات إلى حجرة الجلوس بعد تناول طعام الغداء. كانت صحتها قد تدهورت بعض الوقت وحل الموت مخففاً رحيماً من آلامها، رغم أنه خلف في شعوراً بالفراغ بعد خمسة وأربعين عاماً من صحبة حنونة ومرحة. ص 334)[1].

مالوان فيما أوردناه بلسانه، يرينا لوحات، مشاهد، كما هي اللقى الأثرية، هي المكتشفات، وفي هذا التقابل بين المطمور أو المدفون في الأعماق، وغير المرئي، أو المجهول، وينتظر من يكشف عنه معيداً إياه إلى مجتمعه الذي كانه، إلى زمانه ومكانه، وعملية المكاشفة تتوقف من

(1) مذكرات مالوان «عالم الآثار وزوج أجاثا كريستي» تأليف ماكس مالوان، ترجمة: سمير عبدالرحيم الجلبي، دار المأمون، بغداد، 1987، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

الناحية العلمية على مدى توافر الروح العلمية الدقيقة بين جنبيّ الآثاري، شأنه في ذلك شأن أي عالم، أو معروف في عمل معين، وما في ذلك من مسئولية كبيرة وخطيرة على تماس مباشر بالبعد الأخلاقي: الوجداني لديه، إذ لكم تم تزييف التاريخ، والتلاعب بمكوناته، لكم جرى إتلاف اللقى أو الأحافير، أو الاتجار بمقدرات الأرض الثمينة، وتسريبها عبر ممرات أو طرق إلى أسواق أو جهات خاصة وقد أصبحت سلعية ليس إلا، أي وهي فاقدة جانبها القيمي الإنساني، كما هو المعهود بأكثر من معنى، بالنسبة لتلك السرّية التي تحاط بها عمليات الحفر وتحديداً في المواقع التي تخص تواريخ أمم وشعوب تشهد على ارتباطها بأناس أحياء اليوم، وما في هذا الربط من تعرية لمن يرومون التعتيم عليها تجاوباً مع توجهات إيديلوجية سافرة، أي حيث تلعب لصوصيات ذات دمغة سياسية، سلطوية، دورها الرئيس في ذلك، وبين المتحرك أو المتنفس على السطح، وكيفية تطويقه بسبل مختلفة، لئلا ينظَر فيه باعتباره إنساناً كسواه، أي نظير من يحتكر فيه قواه، ويزيّف شخصيته، كما يعزله عن التاريخ بالذات، وبقدر ما يزيّف العلم في الحالة الأولى، هكذا تزيَّف الحقيقة، أو علم الواقع في الحالة الثانية، حيث التعتيم واحد من ناحية المبتغى، والكذب فاعل هنا، والتقدم به على أنه الصدق. نعم، لعل المتردد هنا يواسي الكوردي كثيراً (إنها لسخرية محزنة ألا يتمكن شعب عانى من الطغيان لعقود طويلة، من تصور نظام سياسي آخر غير النظام الديكتاتوري- لا يمكن الدولة أن تترك النصوص خارج سيطرتها، إذ إن السيطرة على النصوص هي في الآن عينه سيطرة على النفوس، ذلك أن السيطرة على النصوص هي في الآن عينه سيطرة من خلال النصوص- الفصل السادس: الكتابة والسلطة) [1].

(1) مصطفى صفوان: لماذا العرب ليسوا أحراراً ؟ ترجمة: مصطفى حجازي،

ذلك يدفع بنا ومن خلال مفردات تسمّي تواريخها وأمكنتها الماضية، وليس ما استجد فيما بعد، وفي النص الثاني من القرن العشرين الفائت خصوصاً، وهو ما يمكنه وحده تنوير كل من الباحث الجغرافي فالتاريخي والثقافي.

وأحسب أنني في الحالة هذه، عندما أتوقف عند علم انتروبولوجي، وهو مارتن فان برونسن، سوف يكون مفيداً إلى أبعد الحدود، فثمة الكثير مما يصلنا بما تقدَّم، وثمة الكثير مما يفيدنا مما يقبل الحوار والاستكمال، وذلك في كتابه ذي الصيت «الآغا والشيخ والدولة» [1].

ثمة الكثير مما يجدر التنويه إليه أو تثبيته وليس تأكيده، لأن الوارد يحتفظ بأهميته وهذه الأهمية تتأكد من خلال نوعية التفاعل معها .

بداية لا بد من الاعتراف الشخصي وهو أن الباحث في هذه النقطة يحتاج إلى الكثير من الكلام المنشور ليقول القليل منه، وآية ذلك، أن ما يتردد في كتابه عبارة عن نقل مباشر، كما يقول هو، من ألسنة المعنيين بالبحث غالباً، ومن الناحية الثانية، فلأن الذي ينقله إلى صفحته لا يغفل جانباً توثيقياً، ودون تأكيده القطعي، بقدر ما ينطوي على ضرب من التأريخية اللماحة والمعزَّزة بالمخيال الجغرافي، والتحفيز على النظر فيه بحكمة.

دار الساقي، بيروت، الطبعة الالكترونية، 2013، وهو مستل انترنتي.

(1) برونسن، مارتن فان: الآغا والشيخ والدولة «البنى الاجتماعية والسياسية لكردستان» ج1، ترجمة: أمجد حسين، معهد الدراسات الاستراتيجية، بغداد- أربيل- بيروت، ط1، 2007 ، ومن باب الإيجاز اكتفيت بذكر صفحات الكتاب من هذه الطبعة في المتن.

برويسن، ورغم أننا أشرنا بداية إلى الجزيرة المعنية كتعريف جغرافي، سالفاً، إلا أن الذي دوَّنه عنها كإضاءة للمسرح الجغرافي لمعلوماته، يستحق النظر رفيه، على الأقل كسردية تأريخية، وما تشكّله من قيمة ومن قيمة أطلسية للمكان بالذات (إن منطقة الجزيرة الشمالية «الجزء الشمالي من سهل ما بين النهرين المتصل بأقصى شمال شرق سوريا الحديثة وقطاع الأراضي المسطحة المجاور، والكائن في تركيا إلى الجنوب من جبال قراجداغ وطور عابدين» هوأحد أكثر المناطق خصوبة في العالم. بين أن الغارات التي كانت تشنها قبائل البدو العربية من الجنوب والبدو الرحَّل الأكراد من الشمال وتلال سنجار قد جعلت من الزراعة شأناً محفوفاً بالمخاطر وغير مربح. ص 218). تلك مساحة واسعة تغري بالنظر في بنيتها، وتخيُّل الذين كانوا يدخلونها، أو يقيمون فيها، أو تتقاطع علاقاتهم الاجتماعية داخل هذا المسرح الطبيعي.

وما يأتي فيما بعد، ربما يوفّر لنا بعضاً من الجهد، ويثري البحث بالمكونات البشرية الموجودة والقوى القائمة على الأرض وكيف كانت تتشابك فيما بينها (وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر وضع حكام ناشطون لولايتي الموصل وديار بكر حداً لغارات أكراد سنجار اليزيديين كما أنهم كبحوا جماح البدو العرب إلى حد ما. وبالتدريج بدأت الجزيرة الشمالية تشهد عملية إعادة استيطان ، تمت جزئياً من جانب قبائل كردية رحّالة كانت على الدوام تستخدم هذه الاراضي الخفيضة والدافئة مقرات شتوية لها، وكان أغلبها لا يزال خاضعاً لقبيلة شمر البدوية العربية عند منعطف القرن، وجزئياً من جانب أفراد وفروع قبلية جاءت من أماكن أخرى بفعل إغراء الأراضي الخصبة. وقد تسارعت عملية الاستيطان جراء غلق الحدود بين تركيا

ودولة سوريا التي أصبحت تحت سلطة الانتداب «اعتباراً من حوالي العام 1924». ص 219).

ولينتقل بنا هذا الأناسي «الانتروبولوجي» الهولندي إلى خانة ديموغرافية تضفي على الجغرافيا الجزراوية، إن جاز التعبير، وضمن فسحة منها، توضعاً بشرياً مميزاً بلغته وثقافته، أعني بذلك إشارته إلى قبيلة «دوريكان «الكردية» حيث يقول (من بين أول المستوطنين كانت العائلة المتسيدة لقبيلة دوريكان، وكانت يومذاك قبيلة رحّالة تنتمي إلى اتحاد هفركان القبائلي. ومنذ ذلك الحين استوطن أغلب عوام هذه القبيلة في مناطق تقع على مسافات أبعد باتجاه الشمال، بالقرب من مراعيهم الصيفية، ولكنهم لا يزالون يرسلون إلى زعمائهم الهدية التقليدية، المكونة من أغنام، في الأعياد السنوية، واستقر بعضهم بصورة منفردة في الجزيرة بصفة فلاحين. وكان أول من استوطن من هذه العائلة عباس، ولا بد أن هذا حدث حوالي العام 1850، وفي حياته كان أول تسجيل للأراضي. وكانت له أرض واسعة جداً مسجلة بأسماء أكبر ثلاثة من أبنائه «أصغرهم شويس، لم يكن مولوداً بعد»... ومن الطبيعي أن عباس لم يكن وحيداً حينما استوطن هناك. لم يفعل أي زعيم قبلي كردي ذلك مطلقاً. إذ كان معه بعض أقاربه الأبعدين، وحاشية، ورعيان لقطعانه الكبيرة، وفلاحون تابعون من أصول متنوعة جداً. وهذه نسبة كبيرة «ربما الأغلبية» من مجموعة الفلاحين هذه مسيحيين يعاقبة «سريانيين» من جبال طور عابدي، وليس واضحاً ما إذا كان هؤلاء اليعاقبة من سكان ذلك السهل أصلاً قبل أن يقيم عباس فيه... ويبدو ألا أحد من الدوريكيين أنفسهم، في ذلك الوقت، قد بدأ بممارسة الزراعة، لأن هذه كانت، في نظر أغلب البدو، عملاً يحط من قدرهم.... وحينما توفي عباس خلفه ابنه البكر محمد. بيد أن العائلة

كانت في تلك المرحلة قد تبنت بعضاً من أساليب رجال القبائل العرب، فرسَّخ محمد لنفسه اسماً عظيماً بين الزعماء العرب- وهؤلاء منافسون على السلطة والمكانة أخطر من الاكراد الآخرين آنذاك- من خلال إقامة ولائم لم تشهد المنطقة مثيلاً لها في البذخ على امتداد سنين عديدة. فكانت تذبح في كل يوم مئات الخراف، وكانت دماؤها تسيل جداول حقيقية في تلك الحفلات التي كان يُدعى إليها كل رجالات منطقة الجزيرة العظام.... وحتى يومنا الحاضر لا يحتاج أفراد سلالته سوى أن يذكروا اسمه لكي يقف كل زعيم قبلي عربي على قدميه ويبدي لهم أعظم الاحترام .ص 221).

هذا المقتبس يتضمن أكثر من مثير معرفي، اجتماعي وثقافي استناداً إلى التأريخ والمكان:

جهة التواجد في المكان، وفي رقعة جغرافية واسعة نسبياً.

جهة التداخل القيمي بين المكونات الاثنية والتي تجمعها جملة قيم أخلاقية واجتماعية.

جهة التأثير المكاني في الموجّه الثقافي والنفسي وطبيعة العلاقات بين أفراد العائلة الواحدة.

جهة السلطة ذاتها، وتبعاً لأي مؤشر اعتباري ونفوذ وتأكيد ذات تقيم روابط بين الناس أو ترسم حدوداً فيما بينهم، إلى جانب السلوكيات التي تدخل في نطاق الأعراف والتقاليد وصلتها بها.

ذلك من شأنه أن يمنحنا الكثير من التصورات عن المكان وطبيعته، والتأريخ وطريقة تداوله على مستوى الشفاهة، وكيف يجد مكاناً له في الكتابة، وما إذا كان متطابقاً مع الجاري واقعاً.

وإزاء هذا الذي تقدَّم بنا برونسن، فإن الذي لا يخفى في المتابعة هو الجانب الرحلاتي، أو إن أريدت الدقة: الجانب المتعلق بأركيولوجيا المكان وأهل المكان، واثنوغرافيته، فما يعلمنا به هو ما ينقلنا عن المكان ومن يقيم فيه، وكيف تكون الأنساق الثقافية الخاصة بالعلاقات المكانية، وما يترتب عليها من كشف تاريخي لعالم يخضع لأنظار الآخرين، أو متابعاتهم من الخارج، وكيف أن عملية الكشف هذه هي التي تتولى هذا الانتقال من الشفاهة إلى الكتابة بطرق مختلفة.

ذلك ما ينطبق على متابعته لعائلة أخرى لها صيتها: آل حاجو آغا من قبيلة هفيركان، والذين توزعوا جهة الانتشار بين تركيا وسوريا بالمفهوم السياسي الحديث، بين «أعلى» الخط و«أدنى» الخط، كما هو المتعارف عليه بين الكرد في المنطقة كتوصيف لمكان موحَّد أصلاً.

(إن الهفركان اتحاد قبائلي كبير يتكون «حسب ما يشاع» من أربع وعشرين قبيلة، بعضها مسلم، وبعضها يزيدي،، وكان هناك أيضاً عدد من المسيحيين المرتبطين بالقبيلة ارتباطاً دائماً. وكانت الهفركان تنتمي إلى إمارة بوتان. وحينما كانت هذه لا تزال قائمة كان النظام سائداً، حسب ما يقال. فلم تكن هناك نزاعات ضمن القبيلة الواحدة، ولا بين القبائل على وجه مؤكد. وكان للهفركان زعيم عام تابع لأمير بوتان. وحين هُزِم هذا الأخير على يد العثمانيين ونفي «1847» تفككت الإمارة، كما تفكك العديد من القبائل بعد أن فرَّقتها الصراعات على الزعامة.

لاحقاً، إثر قيام ثورة الشيخ سعيد 1925، دخل حاجو الثالث في مواجهة مع الدولة التركية، وتحت الضغط وجد نفسه مضطراً للتوجه إلى أسفل الخط، حيث سوريا الدولة الحديثة النشأة والانتداب الفرنسي (ثم أجبره الجيش التركي على الانسحاب إلى داخل سوريا، ولم

تكن السيطرة الفرنسية على اقصى الجزء الشمالي- شرقي من سوريا سيطرة كاملة بعد، فكان بإمكان حاجو ومضطهديه معاً أن يدخلوا المنطقة ويغادروها ثانية بسهولة. ومنحت قبيلة طي العربية اللجوء لحاجو، الذي بقي متمرداً بعضالوقت، بشن غارات داخل تركيا تصحبه زمرة صغيرة «جته» على طريقة حرب العصابات، ويهاجم الدوريات التركية، إلى أن أوقفه الفرنسيون .

على العموم، كانت معاملة الفرنسيين لحاجو مؤدبة، بصفته زعيماً قبلياً كبيراً. أما لدى الأغوات الأكراد فكان يلقى ترحيباً أقل لأنه كان منافساً أقوى وأخطر مما ينبغي. وسرعان ما جعلته قدراته الدبلوماسية الناطق الرسمي باسم القبائل الكردية، المفضل لدى فرنسا. ومن جهة ثانية، فإن نفوذه لدى هذه القبائل الكردية آنذاك قد عزَّز الوسائل القديمة التي واظب على استخدامها من أجل بسط سيطرته على مجاميع جديدة، ولم يتحول إلى الزراعة مطلقاً مثل الآغوات الآخرين. فهو لم يكن مزارعاً بل محارباً وسياسياً. وبنى لنفسه بلدة بالتعاون مع الفرنسيين: اسمها تيربه سبي «القبور البيض». ولم تكن لديه أية أملاك في منطقة الجزيرة يوم وصوله إليها. أما الأرض التي بنى عليها تيربه سبي فلقد تلقاها من الآغوات الدوريكيين. ولم تكن أي من القرى تدفع له العشر له أبداً، ولكن سرعان ما شرع بعضها يفعل ذلك في أعقاب وصوله، بشكل يصعب وصفه بأنه طوعي. وارتأى المخاتير أن دفع مبلغ محدد بانتظام أقرب إلى الحكمة من تحمّل خسارات غير متوقعة، ربما أكبر حجماً، جرّاء الغارات التي لم يتوقف رفاق حاجو عن شنّها. أما الآغوات الدوريكيون المتناحرون فقد وحّدوا صفوفهم ونسوا نزاعاتهم، يحدوهم إلى ذلك خوف- إن لم يفعلوا ذلك-

من احتمال أن يصبح حاجو في وقت قريب مالكاً ورئيساً لكل الإقليم. وحينذاك لن يتبق لديهم الكثير مما يتشاجرون عليه. واستمروا يتهمون حاجو بالسلوك غير النزيه وبالسرقة «أو الاغتنام» على نطاق خارق للعادة. ولكن يبدو أن قلقهم الأكبر كان نابعاً من النفوذ الذي كان يتمتع به لدى الفرنسيين. فعلى سبيل المثال، حينما كان الفرنسيون يحتاجون إلى عمال كانوا على الدوام يطلبونهم من حاجو، ويدفعون له رواتبهم أيضاً. وهكذا، انجذب العوام نحو حاجو....

وهكذا أصبح حاجو الزعيم القبلي الكردي الأقوى والأشد نفوذاً في أرجاء منطقة واسعة. وجاءته المنية قبل أن تستطيع التطورات الاقتصادية والسياسية زعزعة موقعه، فظل في ذاكرة الناس يحتل مكانة آخر الزعماء العظام.

إن التنظيم السياسي لقبيلة الهفركان مثير للاهتمام، لأنه لم يكن قد استقر على حال بعد. فلم تكن هناك قيادة مركزية ممأسسة، مع ما نجم عن ذلك من حالة تحول السلطة من فخذ إلى فخذ «أو بالأحرى، من عائلة إلى عائلة». ومع ذلك، ففي آخرر المطاف، كان المطالبان الوحيدان بالسلطة المركزية ينتميان إلى العائلة نفسها. ولو قُدّر للتطورات أن تستمر بلا انقطاعات لكان محتملاً أن تصبح عائلة الملا عثمان حمولة بكزادية، مثلما أصبحت عائلة الجاف. ومما هو مثير للاهتمام أيضاً أن موقع عائلة الملا علي رمو، وبالرغم من غياب أي سلطة حقيقية لديها «إلا، بطريقة ما، على فخذها هي، أي الأربيانيين»، هو الآن موضع احترام أكبر من موقع عائلة عثمان. ص 239).

ذلك مشهد آخر، مثير للاهتمام، شديد التركيب لبنيان قبلي واسع الانتشار متفرّع في أصوله، سوى أن العلامة الفارقة للمكان وكيفية

إكسابه صفة اجتماعية وثقافية وحتى نسَبية تكمن في المدى الواسع واللاحدودي بشكل دقيق، مما يسمح بتمرير الكثير من الأسماء والرموز، ومن ثم يسهّل عمل من يريد تلوينه أو تركيبه بالطريقة التي تتفاعل مع أفكار بنيوية تعنيه قبل كل شيء، إلا أن الجدير بالقول هو استحالة الدفع به في مسار معتقدي، تاريخي والإحكام عليه، واعتبار إطلاق أي اسم عليه على أنه حقيقة من جهة، وأن الحدود التي تعرَف الآن وهمر بعمرها الزمني الشديد قصَراً، هي حدود المكان الجغرافية من جهة ثانية، إنما هو الوجه الآخر لتاريخ غاية في الثراء المفهومي، وفي تعددية الأصوات، نظراً لفاعلية المكان الجغرافية ومن ثم القيمة التي يحتفظ بها التاريخ العريض والطويل له، وأفواج الشعوب التي عبرته وحملت ذكرى منه، وتلك التي كانت متقدمة على غيرها في الإقامة فيه باعتبارها موطناً لها. إلى جانب الحداثة النسبية للمدوَّن هنا عن جغرافيا عصفت بها المؤثرات المكانية بمفهومها الاجتماعي، وأخضعت لتلك التسميات التي تبقيها جغرافيات وليس جغرافيا واحدة، ولتبقى الروايات ونسبة كل منها إلى تاريخ معين عراقة أو حداثة سرد، ذات مردود اعتبار، وتصريف قاعدي تاريخي يؤخَذ به على مستوى الشهادة المعزّزة لحقيقة المتواجد في المكان، ومن يكون المتكلم والمتابع، دون نسيان طبيعة الفاعل التاريخي في توجيه المواقف وأخلاقية التلقي .

إن ما أريد الذهاب إليه وتأكيده، هو هذا التقابل التاريخي، وكيفية التمثيل بالحقيقة، ولحساب من يراد النيل منه، أو إخراجه من دائرة الضوء التاريخية، أي الكوردي بالذات، ولعبة اللصوصية التي تمارَس على مستويات مختلفة، بغية تجيير الواقع وما يصل بأكثر العلوم تطبيقية كذلك.

وأحسب أن الناظر فيما دوّن في كتابات الرحالة، وفي توجهات متنوعة، لا بد أن يتلمس، إن اعتمد لغة البحث الدقيقة في نطاق مساندة الحقيقة، لأمكنه تحديد من يكون لص التاريخ الفعلي، ومن يوقع به، ليكون المتَّهم وهو البريء، إذ إرادة السلطة المتشددة، هي في الحيلولة في ألا تبقي أي إرادة خارج دائرة رقابتها، إنما أن تلحقها بها ما أمكنها ذلك، إن بالإغراء أو تحت طائلة التهديد، أو بشراكات مزيفة، تنمّي العنف أكثر.

أرى أن الباب مفتوح على مصراعيه بغية تحرٍّ أكثر للجزيرة المذكورة، واللصوصيات التي تتقاسمها على امتداد تاريخ طويل شفاهة وكتابة، كما هو شأن السلطة الكليانية العنف وأحاديتها، وإنشاؤها لحقيقة تعنيها على أكثر من صعيد، وفي أكثر من مسار تأريخي، أكثر مما تعنيها هي نفسها، وهذا من شأنه إبقاء كل من الراوية والكاتب والمخاطَب موزَّعين في مواقع غير مستقرة، لأن هناك أكثر من واحد، بأكثر من لغة، في أكثر من حيّز تاريخي بالمقابل، والمأثرة الأخلاقية التي تكوّن رصيدها الاجتماعي ومن ثم الاستقطاب لحضور ديموغرافي متعدد، صحبة مروياتها ذات الطابع التوثيقي، حيث أختام بشر قائمة، وأصوات أناس فاعلة في المكان، لا أظنها بقابلة لأن تدحَض، أو تستهجَن، إلا من قبل ذائقة نفسية لا صلة لها بمجريات الوقائع، وما في ذلك من اصطناع روايات مركَّبة على هواها.

سيرة ذاتية للمؤلف

إبراهيم محمود

باحث ومفكر كوردي سوري

تولد 1956.

- إجازة «بكالوريوس» في الفلسفة من كلية الآداب، قسم الفلسفة، جامعة دمشق/1981.

- التفرغ للدراسة والتأليف في مجالات فكرية وأدبية وتاريخية ونقدية مختلفة.

- شارك في ندوات أدبية وثقافية مختلفة داخل المحافظة وخارجها، وخارج سوريا.

- ألقى محاضرات في مدن أوربية بين أعوام 2005-2006-2009.

- الآن لاجىء في إقليم كوردستان، ويعمل في مركز بيشكجي للأبحاث الانسانية في جامعة دهوك.

- حيث شارك في أنشطة أدبية وثقافية في دهوك- هولير- كلاويذ الأخير. نشر عدة كتب في فترة تواجده في الإقليم منذ أول آذار 2013.

- نشر الكثير من المقالات والأبحاث الفكرية والأدبية في كبريات المجلات والصحف العربية، مثل: المسيرة، الآداب، عالم الفكر، الوحدة، دراسات عربية، المستقبل العربي، الفكر العربي، الموقف الأدبي، النهج، الطريق، كتابات معاصرة، الفكر العربي المعاصر، الاجتهاد، الناقد، النقاد، النقد، السفير، أخبار الأدب، الغاوون،جسد، البيان، أوان، الثورة، تشرين، صوت الآخر، مجلة الأكاديمية الكوردية، مجلة كلاويذ ...الخ، عدا النشر في مواقع الكترونية مختلفة.

- مؤلفاته: نشر أكثر من خمسين كتاباً في حقول نقدية: فكرية وتاريخية وأدبية مختلفة ويركّز بصورة خاصة على الجانب الانتروبولوجي في دراساته، وفيما يخص الجسد، عدا مشاركاته في كتب جماعية، ومقدماته وشروحاته لكتب مترجمة عن الفرنسية (لجاك دريدا خصوصاً)، ومن مؤلفاته:

- مغامرة المنطق البنيوي(البنيوية كما هي)، مركز الدراسات والأبحاث الاشتراكية في العالم العربي، دمشق/ 1991.
- صورة الأكراد عربياً بعد حرب الخليج، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ط1/ 1992.
- الجنس في القرآن، شركة رياض الريس، لندن، ط1/1994/ط2/2000، ط2، دار رؤية، القاهرة، 2016.
- البنيوية وتجلياتها في الفكر العربي المعاصر، دار الينابيع، دمشق، ط1/ 1994.
- الهجرة إلى الإسلام، دار الفكر، دمشق، ط1/ 1995.
- الكورد في مهب التاريخ، كرد برس، بيروت، ط1/ 1995.
- أئمة وسحرة «البحث عن مسيلمة الكذاب وعبدالله بن سبأ في التاريخ»، شركة رياض الريس، لندن، ط1/ 1996.
- جغرافية الملذات «الجنس في الجنة»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/ 1998، ط2، الريس، بيروت، 1998، ط3، دار رؤية، القاهرة، 2016.
- الفتنة المقدسة «عقلية التخاصم في الدولة العربية الاسلامية»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/ 1999، ط2، دار رؤية، القاهرة، 2016.
- المتعة المحظورة «الشذوذ الجنسي في تاريخ العرب»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/2000.
- إيقاعات مدينة «فصول من سيرة مدينة القامشلي»، دار الينابيع، دمشق ط1/2000.
- صدع النص وارتحالات المعنى، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1/2000.
- تقديس الشهوة «الرموز الفلكية في النص القرآني»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/2000.
- أقنعة المجتمع الدمائية، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1/2001.
- الحنين إلى الاستعمار، دار الينابيع، دمشق، ط1/ 2001.
- جماليات الصمت «في أصل المخفي والمكبوت»مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1/2002.

- قراءة معاصرة في الإعجاز القرآني، دار الحوار، اللاذقية، ط1/ 2002.
- الشبق المحرم «أنطولوجيا النصوص الممنوعة»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/2002، ط2، دار رؤية، القاهرة، 2016.
- أرواح اليوم الثامن، دار الينابيع، دمشق، ط1/2002.
- في الثقافة العربية المعاصرة «صراع الإحداثيات والمواقع»، دار الحوار، اللاذقية، ط1/2003.
- صائد الوهم «الطبري في تفسيره»، دار كتابات، بيروت، ط1/2003.
- الضلع الأعوج «المرأة وهويتها الجنسية الضائعة»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/2004.
- وعي الذات الكوردية، الشركة العربية الأوربية، بيروت، ط1/2004.
- نقد وحشي «رؤية لنص مختلف»، دار الحوار، اللاذقية، ط1/2005.
- الموسيقى «عتبات المقدس والمدنس»، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1/2005.
- مجالس الورد والشوك «بين ذاكرة القرية وأرشيف المدينة»، دار الينابيع، دمشق/2005.
- الباحثون عن ظلالهم «العبور إلى فيينا» دار الينابيع، دمشق، ط1/2005.
- قتل الأب في الأدب «سليم بركات نموذجاً»، دار الينابيع، دمشق، ط1/2007.
- النقد والرغبة في القول الفلسفي المعاصر، دار الحوار، اللاذقية، ط1/2007.
- القبيلة الضائعة «الأكراد في الأدبيات العربية الإسلامية»، شركة رياض الريس، بيروت/2007.
- وإنما أجسادنا ..الخ «ديالكتيك الجسد والجليد»، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ط1/2007.
- أحدهم يتغزل بزوجتي «رواية»، دار الينابيع، دمشق، ط1/2008.
- المنغولي أو مجهول الريح «رواية»، دار الينابيع، دمشق، ط1/2009.

- الأنثى المهدورة «لعبة المتخيَّل الذكوري في صناعة الأنثى»، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1/2009.
- الجسد المخلوع بين هز البطن وهز البدن، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/2009.
- جنازة المؤخرة «في مائة وواحد وعشرين نصاً»، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1/2010.
- الصائد الخفي «جدل الصامت في حوارات نبيل سليمان»، دار الحوار، اللاذقية، ط1/2010.
- النص- الجسد- الهاوية «قراءات في ظلال المعاني»، دار تموز، دمشق، ط1/2011.
- زئبق شهريار «جماليات الجسد المحظور في الرواية النسوية العربية»، دار الحوار، اللاذقية، ط1/2012.
- قراءة في رواية يوم الدين، دار الجديد، بيروت، ط1/2012.
- نصوص أفستا وقراءة في النص الأفستاني، دار تموز، دمشق، ط1/2013.
- الإسلام: مدخل جنسي - دراسة- شركة رياض الريس- بيروت، ط1/2013.
- لا قمامة في هذه المدينة، عن اتحاد الأدباء الكورد - المركز العام أربيل، ط1/2013.
- سيرة المحلّق أرضياً «دراسة في شعر جكرخوين»، الأكاديمية الكوردية - أربيل، ط1/2013.
- الجسد البغيض للمرأة- دراسة- دار الحوار- اللاذقية، ط1/2013.
- الحيوانات تستعيد ذاكرتها «قصص»، كلاويذ، السليمانية، ط1/2013.
- الرجل الذي كان: شيركو بيكەس: الحياة والكتابة، الأكاديمية الكوردية/2013.
- قتل الجياد الكوردية: عن محمد اوزون مجدداً «دراسة»، منشورات سردم، السليمانية، 2015.

- علم جمال الجسد المغاير «دراسة»، دار الحوار، اللاذقية، 2015.
- أسئلة التأويل «دراسة»، دار الحوار، اللاذقية، 2015.
- بروق تتقاسم رأسي «سيرة فكرية»، دار الحوار، اللاذقية، 2015.
- الأكاديمي «هل هناك أكاديمي كوردي؟»، دراسة، دار تموز، دمشق، 2015.
- معذَّبو النور «في التصوف الكوردي»، دراسة، دار تموز، دمشق، 2015.
- الإقليم خارج حدوده، مديرية الطباعة، دهوك، 2015.
- اليد والقفّاز «التنوير البحثي في كتابات الأستاذ الدكتور عبدالفتاح علي البوتاني»: دراسة، أربيل، 2016.
- طريدو التاريخ «الكورد في خضمّ حروب الآخرين»، مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2016.
- تراجيديا الضحك، دراسة، دار الحوار، ط1، 2017.
- ظلال الوجه الآخر «دراسة في شخصية محمد كرد علي »، مركز بشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2017 .
- الدرع الواقي : اسماعيل بيشكجي وكتابة القضية الكوردية «دراسة في سلوك وفكر رجل في العاصفة»، مركو بشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2017 .
- الذئب الكوردي «دراسة في شخصية ضياء كوك آلب » دار سبيريز، دهوك، 2017.

أما عن كتاباته بالكوردية فقد صدر له ديوان شعر تحت عنوان

Weke çemekî ji dil derkeve-Şam-2005

وهناك مخطوطات تنتظر النشر.

أما عن ترجماته من الكوردية إلى العربية، فهي عديدة، ومنها: روايتا الخراب، والمتنور، للالش قاسو، والطوفان، لحسن متە، وكوردستان والحدود في القرن العشرين، لأصليخان يلدرم، ورسالة إلى اليونسكو، لاسماعيل بشكجي، واسماعيل بشكجي كوردولوجيا لماليسانج، مع دراسة وملحق... ومقالات ونصوص مختلفة..الخ.

إلى جانب ترجمة نصوص أدبية شعرية وغيرها من العربية إلى الكوردية انترنتياً.

أعمال أخرى قيد الصدور....الخ، من بينها :

- الجسد الدبق، «دراسة».
- انتهاكات موسيقية، «دراسة»
- ضد هوميروس «دراسة شذراتية »